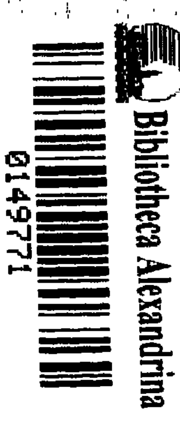
خرافات الأفونتين

في الأدب العربي

دكتورة

نفوسة زكريا سعيد

كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية



مؤسسة الثقافة الجامعية

٤٠ شارع الدكتور مصطفى مشرفة

ت : ٤٨٣٥٢٢٤٠

خرافات لافونتين

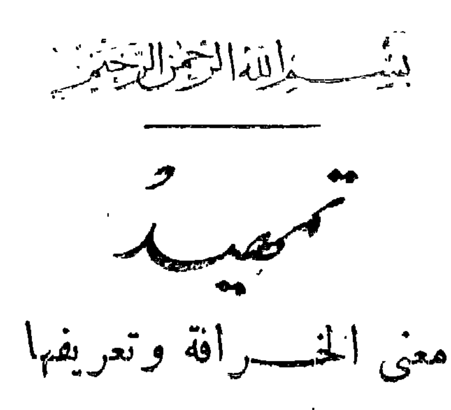
في الأدب العربي

دكتور

نفوسة زكريا سعيد

كلية الآداب — جامعة الإسكندرية

مؤسسة الثقافة الجامعية



تمهيد

معنى الخرافة وتعريفها

لكلمة خرافة « Fable » معان متعددة .

١ ـ أنها قصة حيوانية لا مغزى لها « Eeast Fable » .

٢ ـ أنها قصة حيوانية لها مغزى وعندئذ تساوى موعظة Apologue .

٣ ـ أنها قصة خيالية بوجه عام Fiction فتكون بذلك أعم من قصة حيوانية .

ولكن المعنى الأدبى الاصطلاحى الذى يكاد يجمع عليه مؤرخو الأدب والنقاد ودوائر المعارف هو : أنها قصة حيوانية يتكلم الحيوان فيها ويعقل مع احتفاظه بحيوانيته ، ولها مغزى (١) . ولا يقتصر دور البطولة فى هذه القصة على الحيوان وحده ، بل يقوم بدور البطولة فيها الطير والنبات والجماد والإنسان ، وإنما نسبت إلى الحيوان لأن موضعه فيها أبين من غيره ، والقصص التى وردت عنه أكثر عددا . وأبطال هذه القصة سواء أكانوا من الحيوان أو غيره ليسوا إلا رموزاً لأشخاص حقيقين .

والخرافة بهذا المفهوم الأدبى الاصطلاحى ـ وهى التى نعنيها فى هذا البحث ـ جنس أدبى قائم بذاته له خصائصه الفنية التى تميزه عما سواه . ومقياس البراعة فيه

---

(١) انظر عبد الرزاق حميده . قصص الحيوان فى الأدب العربى . طبع القاهرة سنة ١٩٥١ ص ٢٥ ـ ٢٦ .

مراعاة النسبة بين الرموز التى يتخذها المؤلف من حيوان وغيره وبين ما ترمز إليه من أشخاص حقيقيين، بحيث يكون القناع الذى تتستر وراءه هذه الأشخاص غير كثيف ، حتى لا تنطمس الغاية الرمزية من القصة . ومن أجل هذا يجب ألا يغيب عن ذهن المؤلف الأشخاص المقصودون حين يتكلم عن أشخاصه المستعارين بحيث تكون أكثر الصفات التى يذكرها يمكن أن تنطبق على كليهما فى وقت معا ، ولا يصح مع هذا أن يستغرق فى وصف الأشخاص المستعارين . والطريق القصد بين هذين دقيق (١) .

ولقد عرف العرب الخرافة بهذا المفهوم الذى أوضحناه ، بل وبهذا الاسم آثرناه للتعبير عن كلمة « Fable » وهو الخرافة ، لأن كلمة « Fable » قد وضع لها فى العربية عدة أسماء : الخرافة . المثل . الموعظة . الأسطورة .

فكلمة خرافة استعملت للتعبير عن كلمة « Fable » بمعناها الأدبى الاصطلاحى فى مصدر عربى قديم . استخدمها ابن النديم فى كتابه الفهرست حيث يقول : «قال محمد بن اسحق : أول من صنف الخرافات وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان الفرس الأول » . ويقول بعد أن يتكلم عن ابن عبدوس الجهشيارى وما حاوله من تأليف كتاب فيه أسمار العرب والعجم : « وكان قبل ذلك ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة ، منهم عبد الله بن المقفع ، وسهل بن هارون ، وعلى بن داود كاتب زبيدة وغيرهم (٢) .

وكلمة « مثل » من الكلمات التى أدرج الساميون فى مدلولها كلمة « Fable »

---

(١) انظر محمد غنيمى هلال . الأدب المقارن . الطبعة الثالثة - طبع القاهرة ١٩٧٣ ص ١٧٦ (القواعد الفنية للخرافة) .

(٢) انظر ابن النديم الفهرست . طبع بيروت ٣٠٤ .

الخرافة الحيوانية التي تتخذ أداة تعليمية بنوع خاص. فقد أطلق اليهود منذ القرن الأول الميلادى كلمة « Māsā » على عدد من قصص الثعالب وخرافات كوبسيم أو كوبسيس ، وأطلق العرب على قصص الحيوان ذات المغزى أمثالا (كتاب العنبي ص ٨٥) ، وفي السريانية تؤدى كلمة «مثل» المعنى نفسه [1] .

وقد استخدم بعض أدبائنا المحدثين كلمة «مثل» في ترجمة «خرافات لافونتين» « Les Fables de Lafontaine » . فاستخدمها الأب نقولا أبو هنا في عنوان كتابه « أمثال لافونتين » . واستخدمها كذلك حسيب الحلوى فيما ترجمه من خرافات لافونتين [2] .

وكلمة « موعظة » استخدمها بعض أدبائنا المحدثين ممن نقلوا خرافات لافونتين أو حاكوها . فاستخدمها محمد عثمان جلال في عنوان كتابه « العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ » ، واستخدمها ابراهيم العرب في كتاب « آداب العرب » فسمى كل خرافة « عظة » .

« ولا فرق بين الخرافة وقصة الموعظة - كما يقول بعض الدارسين الأشكال الأدبية التعليمية - من حيث الغاية التي تهدف إليها كل منها أو الدروس النافعة التي تنقلها ، وكل ما بينهما من خلاف أن الخرافة تكون أقل تعقيدا وطولا مما تكون عليه الموعظة عادة ، كما أن هناك من الخرافات ما يخلو من المغزى الخلقي » [3].

وترجم ناصر الحانى كلمة « Fable » بكلمة أسطورة ، وجاء بتعريف لها

---

(١) انظر عبد المجيد عابدين : الأمثال في النثر العربي القديم طبع القاهرة سنة ١٩٥٦ ص ١٠ - ١٢ .

(٢) انظر حسيب الحلوى . الأدب الفرنسي في عصره الذهبي . طبع حلب سنة ١٩٥٢ ص ٥٩٥ .

(٣) انظر عبد الرازق حميدة . قصص الحيوان في الأدب العربي ص ٢٨ - ٢٩ .

لا يكاد يختلف عما ذكرناه من قبل ، يقول : الأسطورة اصطلاح أدبى أطلق أصلا على كل حكاية خيالية ، وقد قصر حديثاً على القصص القصيرة ـ سواء كانت شعراً أم نثراً التى تقصد تلقين فضيلة أو صفة حميدة بطريقة جميلة مشوقة . إن عماد الأساطير أناس خياليون وحيوانات وأشياء غير حية من الطبيعة ، كل يقص قصته ويكون مدار الحديث ومحوره . وتتألف الأساطير عادة من قسمين رئيسيين ، يشمل الأول عرضاً رمزياً للأحداث ، والثانى نصحاً وإرشادا ، وهذا ما يسمى (المدار الخلقى) فى الأسطورة ، ويعتبر من أسبابها التى لا غنى عنها » .

ثم يذكر تقسيم هردر Herder للأساطير ، وهى ثلاثة أصناف :

١ ـ أساطير نظرية : وهى التى تقصد تمثل نوع من المعرفة أو المعلومات كأن يكون مظهر من مظاهر الطبيعة مثلا محوراً يصور قوانين الكون عامة .

٢ ـ أساطير خلقية : وهى التى تشمل قواعد لتهذيب الإرادة وتربيتها . إننا لا نتعلم تنظيم إرادتنا من الحيوان الذى قد يتخذ مدار الأسطورة مثلا . كما لا نتعلم الأخلاق منه ، ولكن الأسطورة تجمع إلينا الطبيعة وما فيها من حيوان ونبات وإنسان (عائلة الطبيعة) وترسمها منسجمة متفاعلة مع بعضها لتؤمن خيرها وسعادتها .

٣ ـ أساطير القدر والمصير : وفيها نجد الترابط بين الأحداث أو ما يسمى (قدراً) أو (حظاً) ونرى الأشياء تتعاقب الواحد بعد الآخر وكأن تعاقبها هذا أمر مقدر تسوقه قوة عليا [١] .

---

(١) انظر : ناصر الحانى — من اصطلاحات الأدب الغربى ، طبع دار المعارف بمصر بسنة ١٩٥٩ ص ٥٣ .

وواضح مما ذكره ناصر الحانى أن « الأسطورة » التى ترجم بها كلمة Fable أنواع، وأن الـ « Fable » بمعناها الأدبى الاصطلاحى نوع منها .

ومن كل ما عرضناه فيما سبق يتبين لنا أن كلمة « خرافه » التى وضعناها بإزاء « Fable » لاتزال هى الكلمة الدقيقة التى تؤدى إلى المعنى الاصطلاحى الذى يعنى القصة على ألسن الحيوان ، ومن الطبيعى أن تكون القصة على ألسنة الحيوان خرافية ، أما اصطلاح « المثل » فلا يؤدى المعنى الذى نقصده ، لأن المثل قد يستخرج من الخرافة وغير الخرافة ، وهو يتوجه أصلا إلى المغزى الموجود فى الخرافة وليس إلى الحكاية نفسها، وكذلك الشأن فى التسميات الأخرى كالأسطورة وغيرها فهى لا تؤدى إلى المعنى الاصطلاحى للخرافة .

- ٨ -

الخرافة فى الأدب العربى

الخرافة من الفنون الأدبية التى تنشـأ فطرية فى أدب الشعب ، ثم تأخذ فى الارتقاء إلى المرتبة الأدبية فتتبادل الصلات مع الآداب الأخرى . ويكاد يجمع الدارسون على أن الشرق هو منشأ الخرافة ، ولكنهم اختلفوا فى البيئة الأولى التى ظهرت فيها ، ويتمثل الخلاف فى ترجيح مصر أو بابل أو الهند مكانا لنشأة الخرافة . ويرى كثير من العلماء الأوربيين أن الخرافة الهندية كانت مصدر إلهام لمن كتبوا فى الخرافات فى الآداب الأوروبية الحديثة ومنهم لافونتين .

والخرافة فى أدبنا العربى قديمة النشأة ، جاء فى كتب الأدب طائفة منها متفرقة فى مواضع مختلفة . جاء أكثرها مع الأمثال لتفسيرها وهى جميعاً خرافات ذات مغزى . نذكر منها على سبيل المثال قصة « ذات الصفا » التى جاءت لتفسير هذا المثل الذى يعد من أمثال العرب المشهورة «كيف أعاونك وهذا أثر فأسك» . يقول الميدانى (١) أصل هذا المثل على ماحكته العرب على لسان حية ، أن أخوين كانا فى إبل لهما ، وكان بالقرب منها واد خصيب ، وفيه حية تحميه من كل أحد . فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أنى أتيت هـذا الوادى المكلىء فرعيت فيه إبلى وأصلحتها ! فقال له أخوه : إنى أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لا يهبط ذلك الوادى إلا أهلكته ؟ قال فوالله لأفعلن . فهبط الوادى ورعى به إبله زماناً ، ثم إن الحية نهشته فقتلته . فقال أخوه : والله مافى الحياة بعد أخى خير ، فلأطلبن ولأقتلنها أو لأتبعن أخى . فهبط ذلك الوادى وطلب الحية ليقتلها ، فقالت الحية له : ألست ترى أنى قتلت أخاك ، فهل لك فى الصلح فأدعك بهذا الوادى تكون فيه ، وأعطيك كل يوم ديناراً ما بقيت ؟ قال : أو فاعلة أنت ؟ فقالت : نعم .

(١) مجمع الأمثال : طبع القاهرة سنة ١٣١٠هـ ، ج ٢ ص ٦١ .

قال: إنى أفعل . فحلف لها وأعطاها المواثيق لايضرها ، وجعلت تعطيه كل يوم دينارا ، فكثر ماله حتى صار من أحسن الناس حالا . ثم إنه تذكر أخاه فقال : كيف ينفعنى العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخى ! فعمد إلى فأس فأخذها ، ثم قعد لها فمرت به فتبعها ، فضربها فأخطأها ودخلت الجحر، ووقعت الفأس بالجبل فوق جحرها فأثرت فيه . فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار ، فخاف الرجل شرها وندم . فقال لها : هل لك أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه ؟ فقالت : وكيف أعاودك وهذا أثر فأسك ، وأصبح هذا القول مثلا يضرب لمن لا يفى بالعهد .

وقد نظم النابغة الذبيانى هذه القصة فقال :

وإنى لقيت من ذوى الغى منهمو ... وما أصبحت تشكو من الشجو ساهره
كما لقيت « ذات الصفا » من حليفها ... وكانت تريه المال غبا وظاهره
فلما رأى أن ثمر الله ماله ... وأثل موجودا ، وسد مفاقره
أكب على فأس يحد غرابها ... مذكرة من المعاول باتره
فقام لها من فوق جحر مشيد ... ليقتلها ، أو تخطىء الكف بادره
فلما وقاها الله ضربة فأسه ... وللشر عين لا تغمض ناظره
فقال : تعالى نجعل الله بيننا ... على مالنا أو تنجزى لى آخره
فقالت : يمين الله أفعل ، إننى ... رأيتك مشئوما ، يمينك فاجره
أبى لى قبر لا يزال مقابلى ... وضربة فأس فوق رأسى فاقره

والقصة شعرا ونثرا من قصص المواعظ التى رويت على ألسن الحيوان ، وهى جاهلية كما يبدو فى صورتها وفى بيئتها أيضا .

ومثل القصة السابقة قصة « الثعلب والعنقود » التى وضعت لتفسير المثل « أعجز من ثعالة عن العنقود » أو أعجز عن الشىء من الثعلب عن العنقود ،

فأصل ذلك المثل — كما يقول الميدانى (١) — أن العرب تزعم أن الثعلب نظر إلى العنقود فرامه فلم ينله ، فقال هذا حامض .

وحكى الشاعر ذلك فقال :

أيها العائب سلمى أنت عندى كثعالة
رام عنقوداً فلما أبصر العنقود طاله
قال هذا حامض لما رأى ألا ينـاله

فالمثل جاهلى وقصته جاهلية ، أما صياغة القصة شعراً فيبدو أنها صيغت فى العصر الإسلامى ، لأن استخدام الأبحر القصيرة فى النظم كمجزوء الخفيف ، شبيه بنظم القصص المروية على ألسن الحيوان الذى بدأه أبان اللاحقى فى العصر العباسى .

وهذه القصة قد وردت فى خرافات لافونتين كما سنرى ذلك فيما بعد .

هذه أمثلة من القصص المروية على ألسن الحيوان والتى تبدو أصالتها العربية ، وأنها نتاج العقلية العربية ، ويرجع تاريخها فيما يبدو إلى العصر الجاهلى ، على أن هناك قصصاً أخرى على ألسن الحيوان فى الأدب العربى ترجع فى أصلها إلى أمم أخرى اتصلت بالتراث العربى منذ زمن بعيد . فمن ذلك القصة التى نقلها ابن عبد ربه — فى العقد الفريد — عن رجل من بنى اسرائيل ، تحت عنوان « مثل فى الرياء » .

يقول : « عن وهب بن منبه قال : نصب رجل من بنى اسرائيل فخاً . فجاءت عصفورة فنزلت عليه ، فقالت : مالى أراك منحنياً ؟ قال : لكثرة صلاتى انحنيت .

---

(١) مجمع الأمثال : ج ١ ص ٣٣٦ .

فقالت: فمالى أراك بادية عظامك ؟ قال : لكثرة صيامى بدت عظامى . قالت . فمالى أرى هذا الصوف عليك ؟ قال لزهادتى فى الدنيا لبست الصوف . قالت : فما هذه العصا عندك ؟ قال : أتوكأ عليها وأقضى حوائجى . قالت : فما هذه الحبة فى يدك ؟ قال قربان إن مر بى مسكين ناولته إياها . قال : فخذيها ، فدنت فقبضت على الحبة ، فإذا الفخ فى عنقها ، فجعلت تقول قعى قعى . تفسيره : لاغرنى ناسك ناسك مراء بعدك أبداً (١) .

ومن هذه القصص التى ترجع فى أصلها إلى أمم أجنبية « أمثال لقمان » وهى مصدر من مصادر الشاعر الفرنسى لافونتين (٢) .

وشخصية لقمان التى نسبت إليها ـ كما يقول عبد المجيد عابدين ـ (٣) ليست شخصية لقمان الحكيم الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ، وليست شخصية لقمان ابن عاد الجاهلى الشخصية الأسطورية التى نسبت إليها روائع الأمثال، وإنما هو لقمان المولد، صورة محرفة من أيسوب اليونانى(٤) شيخ الخرافة فى الأدب اليونانى،

---

(١) كتاب العقد الفريد : الجزء الثالث . الطبعة الثانية . طبع القاهرة سنة ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٢م ص ٦٧ كتاب الجوهرة فى الأمثال .

(٢) لقد عثر المستشرق « مارسل » أحد علماء الحملة الفرنسية على «أمثال لقمان» ضمن ما عثر عليه من مخطوطات فى مصر ، وقام بتحقيقها مع علماء مصر ، ثم ترجمها إلى الفرنسية ، واتخذ منها دراسة أدبية حينما قابل بين ما ورد فيها من خرافات وبعض الخرافات لافونتين حتى وصل إلى أن كثيراً من خرافات لافونتين لها أصل من تراث المشارقة من الهنود والفرس والعرب . انظر ابراهيم سلامه فى كتابه « تيارات أدبية بين الشرق والغرب » طبع مصر سنة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ ص ١٩٧ .

(٣) انظر عبد المجيد عابدين . فى كتاب الأمثال فى النثر العربى القديم . طبع القاهرة سنة ١٩٥٦ ص ١٨٧ .

(٤) شخصية يحيط بها الغموض، والمؤرخون اليونان أنفسهم لا يعرفون عنها شيئاً كثيراً . وقد نحلت إليه خرافات كثيرة ، بعضها وضع قبل عصره وبعضها وضع فى عصر متأخر عن عصره . وكان من المنحول إليه بعض ما انتقل إلى اليونان من الشرق . وقد أسهم فيه الأدب السنسكريتى بنصيب كبير .

وهو فى هذه الصورة عبد حبشى من أيلة — مدينة من المدن الآرامية — كان عبداً لرجل من بنى إسرائيل وقد أعتقه وأعطاه مالا يتدبر به أمور المعيشة . ولقد أطلع الناس لأول مرة فى الأدب العربى على كتاب لأمثال لقمان يرجع تاريخ تدوينه إلى نهاية القرن السابع الهجرى ٦٩٩ هـ — ١٢٩٩ م ، ظهرت منه نسخة خطية فى باريس وطبعت عدة مرات أقدمها طبعة ليدن سنة ١٦١٥ م ولقيت عناية من الباحثين الغربيين منهم ديرنبورج ، ورنيه باسيه ، وشوفان ، وبرنارد هلر .

وأمثال لقمان المطبوعة فى باريس سنة ١٨٤٧ باللغة العربية ، هى إحدى وأربعون خرافة ، معظمها له نظائر فى خرافات إيسوب ، وفيها أيضاً خرافة لا نظير لها فى إيسوب وهى « الموسجة وبالبستانى » .

وقد جاء فى مقدمتها أنها كتبت لغرض تعليمى ، وأنه ليس لها قيمة أدبية كبيرة وليست عيناً من عيون الأدب العربى ، وإنما تعد كتاباً ابتدائياً لتعليم الفرنسيين لغة العرب .

وهذه الخرافات قصيرة جداً والمغزى فى آخرها ، وقد كتبت بأسلوب ملىء بالركاكة الأعجمية والأخطاء النحوية والصرفية كما يتضح من خرافة « أسد وثعلب » .

« أسد مرة ، اشتد عليه حر الشمس ، فدخل إلى بعض المغائر يتظلل بها ، فلما ربض أتى إليه جرذ يمشى على ظهره ، فوثب قائما ، فنظر يميناً ويساراً وهو خائف مذعور ، فنظره الثعلب فتضحك عليه ، فقال له الأسد : ليس من الجرذ خوفى وإنما كبر على احتقارى » .

فالعجمة واضحة فى أسلوب هذه الخرافة كأول كلمتين فيها (أسد مرة) وكلمة (فتضحك) مما يدلنا على أنها نقلت من لغة أجنبية وقد وردت إلينا

— كما يقول عبد المجيد عابدين فى المرجع السابق — عن طريق الآراميين لا عن طريق اليونان .

وقد أخذت الخرافة تتخـــذ شكلا فنياً فى الأدب العربى منذ القرن الثانى الهجرى ، عندما ترجم إلى العربية كتاب « كليلة ودمنه » الذى ترجمه ابن المقفع عن الفارسية ، وكان الفرس قد ترجموا بدورهم هذا الكتاب عن الهندية .

أما سبب تأليف الهند لهذا الكتاب ـ الذى سيصبح شغل حياتنا الأدبيـة ـ فقد بينه ابن المقفع فى مقـدمة الـكتاب ، وهو أن دبشليم الملك نظر فرأى الملوك قبله قد وضعوا الـكتب التى يذكرون فيهـا أيامهم وسيرتهم تخليـداً لذكرهم من بعدهم ، وأحب أن يـكون له كتاب على هذا النسق يذكر به ، فدعا إليه الحـكيم بيدبا وعرض عليـه الأمر ، وطلب منه أن يضع له كتابا بليغا يستفرغ فيه عقله يكون ظاهرة سياسة العامة وتأديبها ، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها الرعية على طاعة الملك وخدمته »[١] . فهو كتاب يراد به أن يحقق غرضا تعليميا ذا شقين : الأول يختص بالرعية إذ يحدد علاقتها بالملك ، والثانى يختص بالملك إذ يحـــدد علاقته بالرعية .

كما طلب دبشليم من الحكيم بيدبا « أن يكون الكتاب مشتملا على الجد والهزل واللهو والحكمة والفلسفة »[٢] . لكى يجذب الناس إلى قراءته على اختلاف طبقاتهم لتعم فائدته ويسير ذكره بين الناس فيخلد بذلك ذكره .

وبدأ بيدبا يفكر فى الطريقة التى سيخرج بها هذا الـكتاب وتـكون مطابقة

---

(١) كتاب كليلة ودمنة . الطبعة الخامسة . القاهرة ١٩١٢ . تحقيق محمد حسن نائل المرصفى : المقدمة ص ٩٩ .

(٢) مقدمة كليلة ودمنه ص ١٠٠ .

لما أراده الملك، محققة لما هدف إليه، حتى اهتدى إلى طريقته التي جعل فيها كلامه على ألسن البهائم والسباع والطير « ليكون ظاهره لهوا للخواص والعوام، وباطنه رياضة لعقول الخاصة » (١).

وقد استطاع بيدبا بهذه الطريقة الرمزية - التي لها ظاهر يبدو لهوا تهش له النفوس وتكتفي به العامة، وباطن يكون جدا تتدبره العقول وتنتفع به الخاصة - أن يعالج مختلف المسائل التي يحتاج إليها الناس عامة . والتي ضمنها كتابه الذي سماه كليلة ودمنه ، وقدمه إلى الملك دبشليم ، فظفر بإعجابه وتقديره .

هذا عن كتاب كليلة ودمنه الذي نقله الفرس إلى لغتهم ، وما قيل في سبب وضعه وطريقة تأليفه ، أما سبب ترجمة ابن المقفع لهذا الكتاب فإنه لا يخفى على دارس حياته وأدبه أن يتعرف عليه .

فكتاب كليلة ودمنه لم يكن الكتاب الوحيد الذي ترجمه ابن المقفع عن الفارسية . فقد كان ابن المقفع - وهو علم من أعلام البيان العربي - فارسي الأصل فارسي النزعة أيضا ، ولذلك لم يدخر وسعاً في اطلاع أبناء العربية على تاريخ قومه وأخلاقهم ونظمهم وأدبهم . فترجم عن الفارسية كتاب « آيين نامه » وهو وصف لنظم الفرس وتقاليدهم وعرفهم ، وترجم كتاب « خداى نامه » وهو كتاب في تاريخ الفرس من أول نشأتهم وسماه تاريخ الفرس . ولكن ترجمته لكتاب كليلة ودمنه كان أعظم ما خلفه من آثاره الأدبية، فقد صادف هذا الكتاب هوى في نفسه لأنه - كما يقول مترجمو حياته - كان على خلق كريم ، ميالا بطبعه إلى الحكمة والنصيحة ، وكان كما يبدو من مؤلفاته - الأدب الصغير ، والأدب الكبير ، ورسالة الصحابة - صاحب دعوة أخلاقية سياسية يحرص على إذاعتها في

(١) مقدمة كليلة ودمنه ص ١٠٢ .

كتبه ، وفى كتاب كليلة ودمنه ما يتفق وميوله ويحقق أهدافه . كان أن هذا الكتاب عندما ترجم إلى العربية لم يصطدم بشعور العرب الدينى ، فقد عرف المسلمون تكلم الطير والحيوان مع سليمان عليه السلام فى القرآن الكريم ، وعرفه اليهود والنصارى فى التوراه ، ولذلك تقبله العرب بعامة بقبول حسن .

ولم تقتصر شهرة كتاب دليلة ودمنه لابن المقفع بين العرب وحدهم بل امتدت إلى الشرق والغرب، وصار الكتاب - بعد ضياع الأصل الهندى والترجمة الفارسية - الأصل الذى ترجمت عنه لغات العالم ، حتى إن الفرس أنفسهم قد ترجموه عدة مرات وفى عصور مختلفة إلى لغتهم . وكان من هذه الترجمات ترجمة حسين واعظ كاشفى المعروفة « بأنوار سهيلى » ترجمها فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى وأهداها إلى الامير أحمد سهيلى أحد الامراء فى عهده ونسبها إليه .

وهذه الترجمة الفارسية التى كان الأصل العربى أساسا مباشرا لها هى التى ترجمها إلى الفرنسية داود ساهد الأصبهانى بعنوان : « كتاب الانوار أو أخلاق الملوك » تأليف الحكيم الهندى « بلباى » (بيدبا) (١) . وقد ظهرت هذه الترجمة عام ١٦٤٤ فى عهد لافونتين ، ولعل لافونتين اطلع عليها وعرف عن طريقها بيدبا الذى يعترف لافونتين نفسه بأنه كان من مصادره ، حيث يقول فى مقدمة المجموعة الثانية من خرافاته « ليس من الضرورى - فيما أرى - أن أقول هنا من أين استقيت هذه الموضوعات الاخيرة ، غير أنى أقول فقط اعترافا بالفضل إنى مدين فى أكثرها لبلباى (بيدبا) الحكيم الهندى الذى ترجم كتابه إلى كل اللغات »(٢) .

---

(١) اسم الكتاب بالفرنسية Le livre des Lumieres ou la Conduite des Rois, Composé par le sage Pilpay, indien, tradiut en français par David Sahid d'Ispahan.

(٢) انظر : La Fontaine. Fables· Edition Annotée par Clément Paris. 1926. Page 210.

ولقد أحدث كتاب كليلة ودمنه لابن المقفع ازدهارا في فن القصة المروية على ألسن الحيوان أو الخرافة في الأدب العربي لا في عصر ابن المقفع فحسب ، بل فيما تلاه من عصور . فمنذ أن عرفت العربية هذا الكتاب اتجهت أنظار أدبائها شعراء وكتابا إلى هذا النوع من القصص . منهم من نظم كتاب كليله ودمنه ، ومنهم من قلده .

ففي القرن الثاني الهجري نظمه إبان بن عبد الحميد بن لاحق للبرامكة في نحو أربعة عشر ألف بيت. ونظمه كذلك على بن داود، وبشر بن المعتمر وأبو المكارم أسعد بن خاطر . وقد ضاعت هذه المنظومات ، ولم يصلنا منها إلا نحو سبعين بيتا من نظم أبان عبد الحميد ، نقلها الصولى في كتابه الأوراق .

وفى القرن السادس الهجرى نظمه ابن الهبارية (الشريف أبو يعلى محمد بن محمد) في كتاب سماه « نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنه » .

وفى القرن السابع الهجرى نظمه ابن مماتى المصرى (القاضى الأسعد) لصلاح الدين الأيوبى وضاع نظمه ، ونظمه عبد المؤمن بن الحسن الصاغانى فى كتاب سماه « درر الحكم فى أمثال الهنود والعجم » ومنه نسخ خطية فى فيينا وميونيخ . وقد نسب هذا الكتاب لابن الهبارية .

وفى القرن التاسع الهجرى نظمه جلال الدين الفاش ، وتوجد نسخة من نظمه في مكتبة الآباء اليسوعيين فى بيروت وأخرى فى المتحف البريطانى .

ولم يقتصر عمل أدباء العربية على نظم كتاب كليلة ودمنه ، بل قام كتاب « ثعلة وعفراء » ، وألف ابن الهبارية كتاب « الصادح والباغم » وألف ابن ظفر (أبو عبد الله محمد بن أبى قاسم) كتاب « سلوان المطاع فى عدوان الطباع » ،

وألف ابن عرب شاه كتاب « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » (١) .

واستمرت القصص المروية على لسان الحيوان أو بعبارة أدق كتاب كليلة ودمنة موضع اهتمام أدباء العربية حتى عصرنا الحديث. فرأينا فى نهاية القرن الماضى شاعراً من شعراء الجزيرة العربية من الأحساء ، هو الشاعر أحمد بن مشرف ، أحد شعراء الرعيل الأول ممن أرسوا دعائم النهضة الشعرية الحديثة فى المملكة العربية السعودية ، والذى ثقف ثقافة عربية خالصة ، ينظم قصصاً سهلة على ألسنة الطيور والحيوانات ، مستلها فى قصص كليلة ودمنة .

فى ديوانه أرجوزة طويلة فى النصائح والحكم سماها « نغمة الأغانى فى عشرة الإخوان » (٢) .

استهلها بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، ثم بين مكانة الشعر فى حياة العرب، ورسالته فى الحياة بعامة، ثم وصف أرجوزته وبين غايتها ومنهجها فقال:

وهــــذه أرجوزة	فى فنهـا وجيزة
بديعة الألفـاظ	تسهل للحفـاظ
تطرب كل سامع	بحسن لفظ جامع
أبيـاتهـا قصور	وما بهـا قصور
ضمنتهـا معـانى	فى عشرة الإخوان
تشرح الألباب	محـاسن الآداب

---

(١) انظر تعريفا ببعض الكتب التى نظمت كتاب كليلة ودمنة وقلدته مما أشرنا اليها فى كتاب قصص الحيوان فى الأدب العربى لعبد الرزاق حميده ص ١٥٠ وما بعدها .

(٢) انظر ديوان الإمام احمد بن على بن مشرف . مطابع العروبة . الدوحة . قطر ص ١٢٨ — ١٥٨

فإن أردت علمها	وحدها ورسمها
فاستمله من رجزى	هذا البديع الموجزى
فإنه كفيل	بشرحه حفيل
فصلته فصولا	تقرب الوصولا
لمنهج الآداب	فى صحبة الأصحاب
تهدى جميع الصحب	إلى طريق الرحب
سميته إذا طربا	بنظمه إذا غربا
بنغمة الأغانى	فى عشرة الإخوان
والله ربى أسأل	وهو الكريم المفضل
الهادى للسداد	ويمنح الأمداد

ثم ساق فصول الأرجوزة : فصل فى الصديق والصداقة ، فصل فيمن ينبغى أن يصادق ويصافى ويصاحب ويوافى ، فصل فى شروط الصداقة وآدابها ومعاشرة أربابها ، فصل فى الحث على إعانة الإخوان فى نوائب الحدثان وحوادث الزمان، فصل فى اتحاد الصديقين ، واتصاف كل منهما بصفات الآخر ، فصل فى تزاور الإخوان وتلاقيهم، فصل فى محادثة الإخوان، فصل فى ممازحة الإخوان ومداعبتهم، فصل فى ضيافة الإخوان ، فصل فى عيادة الإخوان ، فصل فى التحذير من صحبة الأحمق ، فصل فى التحذير من صحبة البخيل ، فصل فى صحبة الكذاب ، فصل فى التحذير من صحبة الأشرار.

وكان يورد فى خلال هذه الفصول أو فى نهايتها قصصا يقوم بدور البطولة فيها الحيوان والطير والإنسان ، وقد يمهد لهذه القصص بأبيات فى الحكمة تكشف عن موضوع القصة .

يقول مثلا فى نهاية الفصل الذى وضعه تحت عنوان « فى الحث على إعانة

الإخوان فى نوائب الحدثان وحوادث الزمان » .

إن الصديق الصادقا	من فرج المضايقا
وأكرم الإخوانا	إذا شكوا هوانا
وأسعف الجريحا	وحمل العظيا
وأنجد الأصحابا	إن ريب دهر رابا
أعانهم بماله	ونفسه وآله
ولا يرى مقصراً	فى بذل ماله أو قرى
فعل أبى أمامه	فى خلة الحمامه
فإن أردت فاسمع	حديثه لكى تعى

ثم يورد حكاية « الفأر والحمامة » (١) . والحكاية مستقاة من كتاب كليلة ودمنة (باب الحمامة المطوقة) (٢) . وخلاصتها : أن سربا من الطيور أبصر حباً منثورا - وكان جائعاً - فأراد أكله فقام منهم ناصح لحجزهم عن هذا الحب الذى لم ينثر فى الفلاة إلا لأمر هام ، وقال لهم إن مكابدة الجوع حتى تتبينوا الأمر خير من المخاطرة . لكن الطيور لم تصغ لنصحه ، وسارعت لالتقاط الحب فلفتها الشباك ، فندمت وعادت إلى ذلك الناصح تضرع اليه ليفكر فى تخليصها ، فأمدها برأيه الصائب ، وهو أن تنهض مرة واحدة فتقتلع الشبكة وتطير بها ، ففعلت ، فأبصرها الصياد وقد ارتفعت بها ، فأخذ يعدو لاهثاً وراءها حتى اختفت ، فقادها ذلك الناصح إلى واد وأمرها أن تقع فيه ، ثم نادى صديقه الفأر ، فقرض الحبال ، فتمزقت الشبكة وخلصت الطيور من ذلك الأمر ، وأقامت فى ضيافة

(١) ديوان ابن مشرف ص ١٣٦ .

(٢) كتاب كليلة ودمنة ص ٢٧٤ - ٢٧٦ .

الفأر ثلاثة أيام ثم انطلقت مودعة شاكرة .

نظم ابن مشرف هذه الحكاية فقال :

حكى أريب عاقل ... لكل فضل ناقل
عن سرب طير سارب ... عن الحمام الراعب
بكر يوماً سحراً ... وسار حتى أصحرا
فى طلب المعاش ... وهو ربيط الجاش
فأبصروا على الثرى ... حباً منقى نثرا
فأحمدوا الصباحا ... واستيقنوا النجاحا
فأسرعوا إليه ... وأقبلوا عليه
حتى إذا ما اصطفوا ... حذاءه أسفوا
فصاح منهم حازم ... لنصحهم ملازم
مهلا فكم من عجلة ... أدنت لحى أجله
تمهلوا لا تقعوا ... وأنصتوا لى واسمعوا
آليت بالرب ... ما نثر هذا الحب
فى هذه الفلاة ... إلا لخطب عاتى
إنى أرى حبالا ... قد ضمنت وبالا
وهذه الشباك ... فى ضمنها هلاك
فكابدوا المجاعة ... وانتظرونى ساعة
حتى أرى وأختبر ... والفوز حظ المصطبر
فأعرضوا عن قوله ... واستضحكوا من حوله
قالوا وقد حط القدر ... للسمع منهم والبصر
ليس على الحق مرى ... حب معد للقرى

ألقى في التراب	للأجر والثواب
ما فيه من محذور	لجائع مغرور
أغدوا على الغداء	فالجوع شر داء
فسقطوا جميعاً	للقطه سريعا
وما دروا أن الردى	كان من ذاك الغدى
فوقعوا في الشبكه	وأيقنوا بالهلكه
وندموا وما الندم	يجد وقد زل القدم
فقالت الجماعة	دع الملام الساعة
إن أقبل القناص	فما لنا مناص
والفكر في الفكاك	من ورطة الهلاك
أولى من الملام	وكثرة الكلام

* * * *

فقال ذاك الحازم	طوع النصوح لازم
فقال كل هات	فكرك بالنجاة
جميعنا مطيع	وكلنا سميع
فقال لا تحركوا	فتستمر الشبك
واتفقوا في الهمة	لهذه الملمة
حتى تطيروا بالشبك	وتأمنوا من الدرك
ثم الخلاص بعد	لكم على وعد
فقبلوا مقاله	وامتثلوا ما قاله
واجتمعوا في الحركة	وارتفعوا بالشبكة
فأمهم وراحوا	كأنهم رياح

وأقبل الحمام	فكأنه غمام
على فلاة قفر	من الأنام صفر
فقالت الحمامة	بشراكم السلامة
هذا مقام الامن	من كل خوف يعن
فإن أردتم فقعوا	لا يعتريكم فزع
فهذه الموماة	لنا بها النجاة
ولى بها خليل	إحسانه جميل
ينعم بالفكاك	من ربقة الشباك
فلجأوا إليها	ووقعوا عليها

. . . .

فنادت الحمامة	أقبل أبى أمامه
فاقبلت فويرة	كأنها نويره
تقول من ينادى	أبى بهذا الوادى
قال لها المطوق	أنا الخليل الشيق
قولى له فليخرج	وأذنيه بالمجى
فرجعت وأقبلا	فار يهد الجبلا
فأبصر المطوقا	فضمه واعتنقا
وقال أهلا بالفتى	ومرحبا بمن أتى
قدمت خير مقدم	على الصديق الاقدم
فادخل بيمن دارى	وشرفن مقدارى
وانزل بوجب ودعه	وجفنة مدعدعه
فقال كيف أنعم	أم كيف يهنى المطعم
وأسرتى فى الأسر	يشكون كل عسر

فقال مرنى ائتمر ... فذاك نحس مستمر
قال اقرض الحباله ... قرضا بلا ملاله
وحل قيد أسرهم ... وفكهم من أسرهم
قالت أمرت طائعا ... وخادما مطاوعا
فقرض الشباكا ... وقطع الأشراكا
وخلص الحماما ... وقد رأى الحماما
وقام بالضيافة ... بالبشر واللطافة
أضافهم ثلاثا ... من بعد ما أغاثا

ويختتم الحكاية بقوله :

فاعجب لهذا المثل ... المغرب المؤثل
أوردته ليحتذى ... إذا عرى الخل أوى

والقصة طويلة على الرغم مما اختصرناه منها ، وقد تضمنت كثيرا من الحكم والنصائح : التحذير من الاندفاع إلى شىء قبل التفكير فى الظروف المحيطة به ، فائدة التعاون . إعمال الفكر للخلاص من المأزق فائدة الأصدقاء عند الشدة . وهذا ما هدف إلى بيانه ابن مشرف الشاعر العربى ، وداعية الإسلام فى عصره ، ذلك العصر الذى لم يكن للأدب منه دولة ولا للشعر سلطان .

ويعتبر الشيخ محمد بن سعد مترجم حياة ابن مشرف، أنه هو الذى أوجد نظم القصة السهلة على ألسن الحيوانات والطيور فى العصر الحديث ، وأنه كان إماما لشوقى فى هذا الميدان . فيقول : « ولقد ذكر عبد الرحمن صدقى فى مجلة «المجلة» (العدد ٢٤ عام ١٣٧٨ هـ) أن شوقيا هو أول من تناول النظم فى هذا المجال فى العصر الحديث ، وقال إنه قد أخذ تلك الطريقة عن الشاعر الفرنسى لافونتين .

وشوقى لم يبد فى الشعر إلا فى مطلع هذا القرن ، بل لم يولد إلا بعد وفاة ابن مشرف بعام تقريبا ، فابن مشرف قد توفى عام (١٢٨٥ هـ - ١٨٦٨ م) وشوقى ولد عام (١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩ م) وكتب رجال الدعوة الإسلامية كابن مشرف قد انتقلت إلى مصر فى حياة شوقى، فمن المرجح إذا أن يكون شوقى قد قرأ شعر ابن مشرف وأخذ عنه النظم على ألسن الطيور والحيوانات قبل أن يقرأ للشاعر الفرنسى لافونتين ، (١) .

والواقع إن عبد الرحمن صدقى وغيره ممن كتبوا عن حكايات شوقى التى نظمها على ألسن الطير والحيوان قد أشاروا جميعهم إلى تأثره فى هذه الحكايات بالشاعر الفرنسى لافونتين ، وذلك استنادا إلى تصريح شوقى نفسه بتأثره بلافونتين فى المقدمة التى كتبها بخط يده فى الجزء الأول من ديوانه عند ما طبع لأول مرة عام (١٨٩٨) .

ونحن لا نستبعد أن يكون شوقى قد قرأ هذا النوع من القصص فى أدبنا العربى القديم منثورا ومنظوما، وأن يكون قد قرأ قصص ابن مشرف المنظومة كما يرجح محمد بن سعد ، ولكن قصص لافونتين وطريقته فى صياغتها هى التى أثرت فى شوقى وفى غيره من أدبائنا المحدثين ممن ألفوا الخرافات أو القصص المروية على ألسن الحيوان كما سنرى ذلك فيما بعد .

يتضح مما ذكرناه أن الخرافة لون من ألوان القصة فى أدبنا العربى ، وأنها كانت مصدرا من مصادر الشاعر الفرنسى لافونتين ، فلماذا افتتن أدباؤنا المحدثون بخرافات لافونتين ، فجدوا فى ترجمتها وتقليدها ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب منا أن نقف وقفة قصيرة لنتبين صلتنا بالثقافة الفرنسية بعامة ، وشخصية لافونتين وأثر خرافاته فى أدبنا العربى الحديث بخاصة .

---

(١) أنظر محمد بن سعد بن حسين - كتاب الأدب الحديث فى نجد - الطبعة الأولى طبع القاهرة (١٩٧١ م - ١٣٩١ هـ) ص ٢٤٥ .

اتصالنـــا بالثقـافة الفرنسية

تعد فرنسا فى مقدمة الدول الأوربية التى اتصلنا بثقافتها فى العصر الحديث ، وقد بدأ هذا الاتصال الثقافى بدخول الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت إلى مصر سنة ١٧٩٨ م . وعلى الرغم من الأهداف الاستعمارية الواضحة لهذه الحملة ، كانت لها نتائج طيبة من الناحية الثقافية ، إذ حرصت فرنسا على التقرب من الثقافة العربية ، وتقريب الثقافة الفرنسية إلى أبناء العربية . فاصطحبت الحملة فريقاً من العلماء والمستشرقين الذين يعرفون العربية ، وزودتهم بمختلف وسائل البحث العلمى الحديث التى لم نكن ندرى من أمرها شيئاً فى تلك الفترة المظلمة من تاريخنا ، فترة الحكم العثمانى الذى سيطر على مصر ومعظم البلاد العربية طوال ثلاثة قرون .

وبدأ المصريون يشاهدون ـ لأول مرة ـ مطبعة مزودة بحروف عربية كانت تصدر إليهم منشورات نابليون التى كان يقوم بترجمتها إلى العربية مستشرقو الحملة ، ومن كان يعاونهم من الشرقيين الذين أحضرهم نابليون من إيطاليـا ، ومن بعض السوريين المقيمين فى مصر ، من أمثـال الأب أنطون رفائيل زاخور راهبـة ، وميخائيل الصباغ ، ونقولا الترك ، أما المصريون سواء من المسلمين أم من الأقباط فلم يشاركوا فى الترجمة ، لأن حالتهم التعليمية فى ختام القرن الثـامن عشر لم تكن تؤهل واحداً منهم للقيام بهذه المهمة [١] .

وفى عهد الحملة الفرنسية عرف المصريون أيضاً الصحف والمدارس والمسارح والمجامع العلميـة . فقد أصدر الفرنسيون صحيفتين بلغتهم . وأنشـأوا مدارس

(١) انظر جمال الدين الشيال ـ كتاب تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ـ طبع مصر ١٩٥٠ ـ ص ٣٥ ـ ٦٤ .

لتعليم أبنائهم ، ومسرحاً للترفيه عن جنودهم وعائلاتهم ، وأقاموا مجمعاً علمياً « المجمع العلمى المصرى » على غرار المجمع العلمى الفرنسى ، وزودوه بمختلف آلات البحث العلمى ، وبمكتبة تضم آلاف الكتب ، بعضها أحضروه معهم من فرنسا، وبعضها الآخر جمعوه من الكتب المتفرقة فى مصر : فى المساجد والاضرحة والمكتبات الخاصة وسوق الكتبية .

وعكف علماء المجمع - فى الوقت الذى كان الجنود يحاربون فيه فى مدن مصر وقراها وصحاريها - على الدراسة والبحث فى مختلف المجالات : الرياضيات ، الطبيعيات ، الاقتصاد السياسى ، الآداب والفنون . ولم يكن بالمجمع سوى عضو شرقى واحد هو الأب رفائيل زاخور راهبــــه ، ومع ذلك فقد سمح لعلماء المصريين بزيارة المجمـع ، بل وبتشجيعهم أيضـا على مشاهدة أنشطتـه المختلفـة والتعرف عليها .

ولكن فشل الحملة سياسياً وحربيا قد عجل بخروج الفرنسيين من مصر ، فغادروها بعد ثلاث سنوات وهى مدة قصيرة لم تتح للثقافة العربية التقرب من الثقافة الفرنسية والتأثر بها فى عهد الحملة ولكنها كانت بداية اطلاع على معالم الحضارة الاوروبية الحديثة . ويوضح الجبرتى هذه الحقيقة بوصفه لمشاهداته بعد زيارة المجمع فيقول :

« وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة ، لايمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك والسرور بمجيئه إليهم ، وخصوصا إذا رأوا فيه قابلية أومعرفة أو تطلعا للنظر فى المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير، وكرات البلاد والاقاليم، والحيوانات والطيور والنباتات، وتواريخ القدماء وسير الامم ، وقصص الانبياء

بتصاويرهم ، ومعجزات وحوادث أممهم ، مما يحير الأفكار . . . وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم ، ورأيت عندهم كتاب « الشفاء » للقاضى عياض ، ويعبرون عنه بقولهم « شفاء شريف » . والبردة للبوصيرى ، ويحفظون جملة من أبياتها ، وترجموها بلغتهم ، ورأيت بعضهم يحفظ سوراً من القرآن، ولهم تطلع زائد للعلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات ، ومنهم أريجو (Reige) المصور وهو يصور الآدميين تصويراً يظن من يراه أنه بارز فى الفراغ بجسم يكاد ينطق، حتى إنه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته فى دائرة . . . [1] .

وكما كانت الحملة الفرنسية على مصر بداية اطلاع على معالم الحضارة الأوربية الحديثة، كانت أيضا بداية يقظة وشعور بالتخلف بالنسبة للنهضة الأوربية الحديثة. ولقد عبر عن هذا الشعور الشيخ حسن العطار ـ أحد علماء مصر ممن اتصلوا بعلماء الحملة ـ بقوله: إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها [2] .

ولقد حرصت فرنسا بعد انسحابها من مصر (١٨٠١ م) على توطيد مركزها الأدبى فيها ، وبدأت تسعى إلى تحقيق هذه الغاية منذ عهد محمد على الذى تولى حكم مصر بعد انقضاء الحملة . فلما استقر الأمر لمحمد على فى مصر ، وبدأ يضع خططه الإصلاحية المختلفة التى رأى أن ينهج فيها منهج الإصلاح الغربى، ويستعين فى تنفيذها بالغربيين ، أخذ يفكر فى الدول الغربية التى يمكنه الاستعانة برجالها .

كانت دول الغرب صاحبة الصدارة فى العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث هى : انجلترا ، وفرنسا ، وجمهوريات إيطاليا .

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ ٣ ص ٣٤ ـ ٣٦ .

(٢) الخطط التوفيقية ، لعلى مبارك جـ ٤ ص ٣٨ .

فانصرف محمد على عن الاتجاه إلى فرنسا تخوفا منها وهو الذى تولى حكم مصر بعد خروج الفرنسيين مباشرة ، وانصرف عن الاتجاه إلى انجلترا تخوفا منها أيضا، وهى التى حاولت احتلال مصر عقب خروج الفرنسيين منها ، وباءت محاولتها بالفشل ، واتجه أول الأمر إلى إيطاليا التى كان لمصر علاقات تجارية وثيقة معها ، ظلت قائمة منذ العصور الوسطى حتى عصر محمد على . ففى أوائل عهده كان للإيطاليين جاليات كثيرة فى ثغور مصر والشام . كما كانت اللغة الإيطالية هى اللغة الأجنبية الأكثر شيوعا وتداولا ، بل لقد كانت لغة المخاطبات الرسمية حتى بين القنصليات غير الإيطالية ، وكان هؤلاء الإيطاليون يعرفون العربية ،كما كان عامة الأهالى فى الثغور المصرية وخاصة الاسكندرية ، يتكلمون الإيطالية .

ولذلك أمر محمد على بتدريس اللغة الإيطالية فى المدارس المصرية ، وكانت أولى بعثاته التى أرسلها إلى أوربا (١٨٠٩) وثانيتها (١٨١٠) موجهة إلى مدن إيطاليا، ومن إيطاليا أيضا استدعى محمد على المعلمين للمدارس، والضباط المدربين للجيش ، واشترى آلات الطباعة ، والكتب التى دفعها إلى المترجمين لينقلوها إلى التركية أو العربية (١) .

هذا النفوذ الذى أحرزته إيطاليا فى المجالات المختلفة فى مصر لم يرق فرنسا ، ولذلك أخذت تعمل جاهدة للقضاء على هذا النفوذ وتحويل اتجاه محمد على إليها، وقد ساعدها على ذلك أن الطوائف الأولى من الإيطاليين الذين استخدمهم محمد على لم تكن من العناصر الممتازة ، كذلك قد يرجع الفضل فى تحول اتجاه محمد على إلى فرنسا إلى أن فرنسا نفسها هى التى كانت تسعى - برجالها وعلمائها وضباطها -

---

(١) أنظر جمال الدين الشيال : كتاب تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على — طبع مصر ١٩٥١ م ص ١١ — ١٣

إلى مصر وإلى محمد على الذى كانت تعتبره منفذاً ومتمماً لما بدأته الحملة من إصلاحات فى مصر ، هذا إلى جانب ما كانت تتمتع به فرنسا وقتذاك من مركز دولى ممتاز.

لهذه الأسباب أشاح محمد على وجهه عن إيطاليا، واتجه فى سياسته الإصلاحية نحو فرنسا ، وسرعان ما تحولت مصر عن التزود بالثقافة الإيطالية ، إلى التزود بالثقافة الفرنسية ، تلك الثقافة التى اصطبغت بها مصر طوال القرن التاسع عشر فى شتى نواحيها الفكرية .

وقد أثرت الثقافة الفرنسية فى الفكر المصرى منذ ذلك التاريخ بطرق مختلفة :

أولا : الأساتذة المنتدبون للتدريس فى المدارس المصرية، وكان يقوم بترجمة دروسهم إلى العربية ، طائفة من المترجمين السوريين المقيمين فى مصر.

ثانياً : أعضاء البعثات المصرية التى كان يرسل معظمها إلى فرنسا ، فكانوا خير أداة لنقل علوم الغرب وفنونه وصناعاته إلى مصر علما وعملا .

ثالثاً : طلاب وخريجو « مدرسة الألسن » التى أنشـــأها محمد على سنة (١٢٥١ هـ — ١٨٣٥ م) بناء على اقتراح رفاعه رافع الطهطاوى إمام حركة الترجمة فى مصر ، وكان الهدف من إنشائها كما حدده رفاعه « العمل على نشر العلوم الأوربية فى مصر ، لخدمة الوطن ، والاستغناء عن السفر إلى أوربا ، وليس فى طاقة كل إنسان أن يسافر إليها » .

ولقد كان لهذه المدرسة دور فعال فى الترجمة عن الفرنسية، قام بالإشراف عليه وتوجيهه رفاعه الطهطاوى - مدير المدرسة من الناحيتين الفنية والإدارية وأحد أساتذتها أيضاً، فكان يختار الكتب التى يرى ضرورة ترجمتها ويوزعها على المترجمين من طلاب المدرسة وخريجيها ، ويشرف على توجيههم فى أثناء قيامهم بالترجمة ،

ويقوم بمراجعة الكتب وتهذيبها بعد ترجمتها (١) .

ولم يكن للأدب نصيب يذكر فى مجال هذه الترجمات التى اتجهت إلى النواحى العلمية لخدمة النهضة التى ركز لواءها محمد على .

وينتهى عصر محمد على ، ولكن العلاقات الثقافية بين مصر وفرنسا تظل قائمة حتى يومنا هذا ، كانت تضعف فى بعض الأحايين تبعاً للظروف السياسية التى كانت تمر بها مصر ، ولكنها لا تلبث أن تقوى من جديد .

لم تجد الثقافة الفرنسية من عباس الأول تعضيداً فخبت شعلتها فى أيامه . أغلق مدرسة الالسن ، ونفى مديرها ـ رفاعة الطهطاوى ـ إلى السودان ، وألغى نظام التعليم الذى وضع على النهج الفرنسى.

ولكن هذا الموقف الذى وقفه عباس الاول من الثقافة الفرنسية لم يثن فرنسا عن السعى لاسترداد علاقاتها الثقافية بمصر ، فأخذت تترقب الفرص حتى استطاعت أن تصل إلى مكان الصدارة فى عصر اسماعيل . فعادت الوسائل التى كانت تصلنا بالثقافة الفرنسية ، واستحدث وسائل أخرى دعمت بها فرنسا مركزها الأدبى فى مصر .

فأنشأت عدداً من المدارس الفرنسية مثل مدرسة الآباء العزاريين، ومدارس الفرير ، ومدارس راهبات المحبة، ومدارس الراهبات الفرنسيسكان قام بإنشائها رجال الإرساليات التبشيرية والتعليمية ممن كانت ترسلهم فرنسا إلى مصر ، وعلى الرغم من أن الغرض الأساسى فى إنشاء تلك المدارس كان نشر الدين الكاثوليكى

---

(١) انظر كتاب تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على لجمال الدين الشيال . ص ١٤٩ وما بعدها .

وخدمة الاستعمار الفرنسى، فإنهم جعلوا من أهدافها نشر الثقافة الفرنسية والتمكين للغتها وآدابها .

واستغلت فرنسا نفوذها المالى فى مصر الذى كان قويا ، عن طريق شركة قناة السويس ، وعن طريق ما أنشأته من المصارف والمؤسسات التجارية المختلفة ، فساعدت المتخرجين من مدارسها ، وجعلت لهم الأولوية فى التوظف فى المصالح التى تهيمن عليها ، فكان ذلك من أسباب إقبال المصريين والأجانب على المدارس الفرنسية وقد ترتب على ذلك :

١ أن أصبحت اللغة الفرنسية هى اللغة الأوربية الأولى فى مصر ، لا بين المصريين والأجانب فحسب ، بل بين الأجانب أنفسهم ، حتى اضطرت المحاكم المختلطة إلى إصدار تسعة أعشار أحكامها باللغة الفرنسية .

٢ - أن ظهرت طائفة من المصريين تميل إلى الأدب الفرنسى ، وتسعى إلى نقل بعض آثاره إلى اللغة العربية ، فكان من أوائل ما نقل من الأدب الفرنسى قصة « وقائع تليماك » لفنلون (Fénelon) ، التى ترجمها رفاعة رافع الطهطاوى تحت عنوان « مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك » ، كما نقل بعض الأشعار الفرنسية فى كتابه « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز »[1] . وكذلك نقل محمد عثمان جلال بعض القصص والمسرحيات الفرنسية وسيأتى ذكرها فيما بعد .

على أن معظم التراجم فى عصر اسماعيل كانت مصطبغة بالصبغة العلمية مثلما كان الأمر فى عهد محمد على .

فلما احتل الانجليز مصر (١٨٨٢ م) راعهم ذلك البنيان الضخم من الثقافة

(١) انظر تخليص الإبريز فى تلخيص باريس — طبع القاهرة سنة ١٩٠٥ ص ٧٦

الفرنسية ، الذى بذلت فرنسا جهداً كبيراً فى إرساء قواعده ، كما اعترف بذلك كرومر - رجل الاستعمار البريطانى الأول - حيث قال : « إن الفرنسيين قد قضوا نصف قرن قبل الاحتلال البريطانى ، ينشرون لغتهم بكل ما لديهم من وسائل ، فى حين ظلت الحكومة البريطانية متعطلة لا تبذل أى جهد فى تعليم المصريين » [١] . ولذلك رأى كرومر ضرورة العمل على إضعاف النفوذ الأدبى الفرنسى فى مصر ، حتى تتمكن اللغة الانجليزية من الانتشار ، وتتمكن بلاده من السيطرة التامة على مصر سياسياً وأدبياً .

وقد سلك لتحقيق هذه الغاية عدة طرق : إلغاء البعثات إلى أوربا بعامة وفرنسا بخاصة . انتزاع مدرسة الحقوق من سيطرة النفوذ الفرنسى ووضعها تحت سيطرة النفوذ الانجليزى . فرض تعلم كل العلوم باللغة الانجليزية فى المدارس المصرية . إغلاق مدرسة الألسن [٢] .

ولكن محاولاته وإن كانت قد أدت إلى حد ما إلى إضعاف نفوذ اللغة الفرنسية فى كثير من مصالح الدولة ومعاهدها ، فإنها لم تذهب كل ما لها من قوة وتأثير . فاستمر إقبال المصريين والأجانب على المدارس الفرنسية ، ولعل السبب فى ذلك أن تلك المدارس لم يكن وراءها غاية استعمارية ظاهرة . كما أن اللغة الانجليزية لم تستطع أن تنافس اللغة الفرنسية فى الانتشار سواء فى المجتمعات أم فى التجارة أم فى المحاكم ، لأن معظم اقتصاديات مصر كانت فى أيد فرنسية ، ولذلك قال أحد علماء الفرنسيين داحضاً مزاعم من تنبأوا بتقلص ظل اللغة الفرنسية من مصر فى عهد

---

(١) Earl Cromer : Modern Egypt, p. 236

(٢) أنظر عمر الدسوقى : كتاب فى الأدب الحديث جـ ٢ طبع القاهرة سنة ١٩٧٠ ص ٣٣ وما بعدها .

الاحتلال البريطانى ، لا حجة لما يقول به المتشائمون من أن نجم فرنسا فى مصر قد أفل ، وأن لغة أخرى حلت محل الفرنسية فى عاصمتى تلك الديار - القاهرة والاسكندرية - وما عليك إلا أن تسير فى الشوارع الكبرى حتى تتحقق من ذلك وتسمع بأذنيك باعة الصحف ينادون بأسماء أكثر الجرائد اليومية انتشاراً مثل (لابورص اجيبسيان ، والجورنال دى جيبت ، والجورنال دى كير) وإذا شاهدنا عن بعد شخصين أجنبيين مختلفى الجنسية يتحدثان فتأكد أن الحديث يدور باللغة الفرنسية ، فهى اللغة الغالبة ، كما أنها لغة السياسة ولغة القضاء لأن تسعة أعشار القضايا التى تعرض أمام المحاكم المختلطة تستعمل فيها اللغة الفرنسية »[1].

كما ظل للغة الفرنسية عشاقها من المصريين الذين بلغ من إجادة بعضهم لها أن يؤلفوا بها نظما ونثراً من أمثال أحمد راسم، ومحمد خيرى ، والأمير حيدر فاضل، وفؤاد أبو خاطر ، ومحمد ذو الفقار [2] .

ويتضح لنا من تاريخ هذه العلاقة بين الثقافتين العربية والفرنسية أن اللقاء بينهما ظل مستمراً منذ القرن التاسع عشر حتى القرن العشرين ، وأن التبادل بين الثقافتين ظل قائماً طوال هذه الفترة ، ونحن إذ نعرض فى هذا البحث أثر خرافات لافونتين فى الأدب العربى الحديث ، فانما نعرض صورة من صور هذا اللقاء بين الثقافتين من خلال تاريخها المعاصر .

---

(١) انظر : Lecarpentier : L'Egypt Modern p. 165-166

(٢) أنظر نقولا يوسف فى مقال « احمد راسم وذكريات مدرسة الشعر الفرنسى بمصر » مجله « المجلة » العدد ١٥٠ يونيه ١٩٦٩ ص ٣٨ - ٤٨ .

لافونتين (١٦٢١–١٦٩٥م)

شاعر المنظومات الخرافية

جان دى لافونتين (Jean de La Fontaine) علم من أعلام الشعر الفرنسى فى القرن السابع عشر، الذى عرف بالعصر الذهبى فى حياة الأدب الفرنسى، والذى أنجب نخبة من أدباء فرنسا المشهورين من أمثال موليير وبوالو وراسين الذين استطاعوا هم ولافونتين أن يتركوا أثراً بالغاً فى نهضة الأدب فى ذلك العصر، والوصول به إلى قمة مجده .

طرق لافونتين فنوناً أدبية متنوعة : نظم الشعر فى مختلف الأغراض من مدح ورثاء وغزل وهجاء ووصف وشعر دينى وشعر تعليمى ، ونظم مجموعة من الحكايات والقصص، وكتب الخطب والرسائل ، وكتب التمثيلية والأوبرا (١) ولكن الفن الذى اقترن باسمه وخلد ذكره وكان سبب شهرته فى العالم أجمع هو فن « الخرافة » .

أما أسباب تفوقه فى هذا الفن فترجع -كما يحدثنا مترجمو حياته (٢) - إلى أنه أمضى طفولته وصدر شبابه فى مقاطعة شاتو تيارى (Chateau Thierry) إحدى مقاطعات فرنسا - لاهياً متجولا فى الغابات الملكية التى كان والده يتولى الاشراف عليها ، فأتاحت له هذه النشأة العيش فى أحضان الطبيعة ، والتعلق بها، وتأمل

---

(١) انظر أعمال لافونتين الأدبية فى المقدمة الضافية التى كتبها كليمان لخرافات لافونتين
La Fontaine-Fables-Edition annotée par L. Clément -Paris 1926
page 7 - 20.

(٢) انظر المرجع السابق ، وكتاب تين عن خرافات لافونتين :
Taine - La Fontaine et ses Fables - Paris 1947.

كائناتها ، وخاصة الحيوانات التي كان يميل بطبعه إلى مراقبتها فى جو شاعرى حالم كشف عن موهبته الأدبية الأصيلة التي سعى هو نفسه إلى تنميتها .

اختار له والده دراسة القانون ، فنزل على إرادته والتحق بكليــــة الحقوق وتخرج منها ، ولكنه لم يلبث أن زهد فى دراسة القانون ، وفى الوظائف التى هيأته لها هذه الدراسة ، وانصرف إلى تنمية ميوله الأدبية ، يغذيها بالاطلاع الواسع فى كتب الأدب ، وبالانتقال إلى باريس - منبع الفكر والثقافة وقتذاك - ليكون على مقربة من أدبائها ، مضحياً بحياة الاستقرار التى توفرت له فى مسقط رأسه : الوظيفة التى ورثها عن والده . الأسرة التى تضم زوجته وولده الوحيد ، ليتفرغ للأدب وحده .

وفى باريس عاش بلا عمل يتنقل بين عشاق الأدب من الوجهاء والنبلاء ، ويخالط أدباء عصره من أمثال راسين وبوالو وموليير ، ويقرأ لأدباء العصور الأخرى فرنسيين وغير فرنسيين ، ثم طالع أبناء عصره بانتاجه الأدبى المتنوع - قصائد ، خطب ، رسائل ، حكايات وقصص ، تمثيليات - الذى لفت إليه الأنظار وظفر بالتقدير والاعجاب .

أما « خرافاته » فلم يشرع فى كتابتها إلا فى سن السابعة والأربعين بعد أن تم نضجه وتكوينه ، وبعد أن أطال البحث عن أقرب الفنون الأدبية إلى ميله واستعداده ، حتى اهتدى إلى أن فن الخرافة هو الذى يلائمه ، وأخذت خرافاته تتابع فى الظهور . صدرت فى ثلاث مجموعات تضم إثنى عشر كتاباً ما بين عام ١٦٦٨ وعام ١٦٩٤ م . وقد أهداها إلى ولى عهد لويس الرابع عشر ملك فرنسا وقتذاك لأنه - كما جاء فى كلمة الاهداء الرقيقة - يرغب فى تسلية الأمير ، وفى الوقت نفسه أن يقدم اليه دروساً جادة يتلقاها بلذة ، آملا أن يكون لهذه الدروس وللصفات

العظيمة التى ورثها الأمير عن والده ، أثر فى نمو النبت الصغير الذى سوف يستظل به كثير من الشعوب والأمم (١) .

لم يكن لافونتين مخترع فن الخرافة - كما سبق أن أشرنا - وإنما استفاد من كل من سبقه من أمثال إيسوب Esope اليونانى وفيدر Phèdre اللاتينى ، وبلبى Pilpay (بيدبا) الهندى ، ومن أدباء الخرافة الفرنسيين فى العصور الوسطى ، وفى القرن السادس عشر من أمثال مارو Marot ، ورابوليه Rabelais ، ومن الكتابات المختلفة فى الخرافة عند الأمم القديمة شرقية وغربية .

ولكن ما هو الجديد الذى حققه لافونتين واستحق به أن يكون أبا المنظومات الخرافية فى العالم أجمع . إن لافونتين فى الواقع إن كان قد استفاد من غيره ، فإنه وسم كل ما أخذه بطابع فنه ، وهذا هو سر عبقريته ونبوغه ، وقد كشف هو نفسه عن هذا السر فى قوله :

بعض المقـــلدين أعترف أنهم كالحمقى من الأنعام
إذ يتبعون راعى « مانتو » (٢) تماما كالأغنام
إننى أتصرف على وجه آخر ، فحينما يؤخذ بيدى فأنقاد
كثيراً ما أسير وحدى سـيـعياً وراء السداد
سترون أنى أفعل مثل هـذا على الدوام
فما كان اقتدائى أبداً بعبودية واستسلام
لا آخذ غير الفكرة والطريقة والقانون

---

(١) انظر كلمة الاهداء فى خرافات لافونتين التى قدم لها كليمان ص ٥٥ — ٥٦

(٢) مانتو : مدينة إيطالية . ولد الشاعر فرجيل بالقرب منها ، وهو الذى يكنى عنه لافونتين براعى مانتو فيما يظهر .

الى كان أساتذتنـــا أنفسهم يتبعون
على أنه إذا أعجبنى عندهم بعض المواضع الرائعات
وأمكن أن تسلك بين أشعارى من غير إعنات
فأنا أنقلها ، وأريد أن أتقى التـــكلف العقيم
حين أن أجهد أن أسم بطابعى ذلك اللحن القديم (١)

ولا شك أن ما يقوله لافونتين إنما هو المنهج السائد بين أدباء أوروبا فى هذه الفترة ، التى كانت فيها كتابات اليونان والرومان بصفة خاصة تمثل النموذج الأعلى الذى ينبغى احتذاؤه ، على أن لافونتين يقر بإبداعه فى الصياغة ، ويعنى بها الشكل بصورة عامة ، وهو الجانب الإبداعى الذى يفرق بين شاعر وآخر فى كل مقاييس النقد الأدبى .

كانت الخرافة قبل لافونتين – فى اليونانية أو اللاتينية – حكاية قصيرة بسيطة ، تنتهى عادة بدرس أخلاقى هو غايتها الأساسية ، ولذلك كانت العبارة التى تختتم بها خرافات إيسوب اليونانى ولا تكاد تتغير ، هذه الحكاية توضح أن ... ، ثم يساق الدرس الأخلاقى الذى تتضمنه كما نهج فيدر اللاتينى نهج إيسوب فى مفهومه لغاية الخرافة فصرح ، بأن كل ما يطلب من الخرافات هو أنها تصحح أخطاء الناس (٢) .

ولكن لافونتين طور الخرافة إلى عمل فنى متكامل العناصر ، أراد أن يحقق من ورائه غايتين : التثقيف والمتعة الفنيـــة ، لأنه رأى – كما يقول فى مقدمة

---

(١) انظر حسيب الحلوى : كتاب الأدب الفرنسى فى عصره الذهبى ، طبع حلب سنة ١٩٥٢ ص ٥٨٦

(٢) انظر : Larousse du 20e. Tome 3. p. 383, Paris 1930

خرافاته ـ « أن الخرافة تتكون من جزأين، يمكن أن اسمى أحدهما جسما والآخر روحا . فالجسم هو الحكاية ، أما الروح فهى المغزى الخلقى للحكاية »(١) . ولكى يشف الجسم عن الروح لا بد من إجادة تصويره تصويراً يثير كل ما للروح من خصائص ، ولذا حرص لافونتين على توفر المتعة الفنية فى خرافاته .

لقد تناول لافونتين فى خرافاته الموضوعات التقليدية التى تناولها من سبقه من كتاب الخرافات ، ولكنه بث فيها الحياة والقوة والجمال بما سكبه فيها من طبعه الفنى ، وعاطفته القوية ، ونكتته الحلوة الرفيعة ، وسخريته اللطيفة ، وملاحظاته الدقيقة ، ومقدرته على الغوص إلى أغوار النفوس والاحساس بالواقع ، وبذلك استطاع أن يقدم من خلال تلك الموضوعات لوحة كاملة للمجتمع الفرنسى فى عصره ، بل للمجتمع الانسانى بعامة أو حسب تعبيره هو فى مقدمة خرافاته « تمثيلية واسعة الآفاق فى مائة فصل ، تجرى حوادثها على مسرح هذا العالم » . عرض فى خلالها الناس فى مختلف طبقاتهم : الملوك ، السادة، رجال الدين ، العلماء ، الفلاحون ، وبمختلف طبائعهم : المتكبرون ، الجبناء ، الاستغلاليون، السذج ... عرض هؤلاء جميعاً خلف ستار من الرموز التى تتطلبها الخرافة : الحيوانات ، النباتات ، الجمادات ، الانسان . وكانت الحيوانات أبرز تلك الرموز حتى أطلق عليها « حيوانات لافونتين » لمقدرته الفائقة فى رسم مظاهرها المادية ، وحسن اختياره للصفات المعنوية المناسبة لها ، وملاحظاته الدقيقة لغرائزها على نحوها القريب من غرائز الانسان . فكان الأسد يرمز للملك ، والثعلب يرمز للوزير أو رجل الحاشية ، والدب يرمز للفلاح . . .

ولم يقتصر تجديد لافونتين فى طريقة تناوله لموضوعات خرافاته فحسب، بل شمل تجديده القالب والصياغة .

---

(١) مقدمة خرافات لافونتين ص ٦١

- فقد أفرغ تلك الموضوعات فى قوالب متنوعة ، كالقصة أو التمثيلية أو يجعل منها موقفاً نقدياً ، أو تصويراً للحيوان والانسان والطبيعة .

- وافتن فى كتابتها . فاستخدم أسلوبا رشيقاً مركزاً ، وأوزاناً كثيرة متنوعة ، معتمداً على ثرائه اللغوى الواسع الذى لم يقف عند حدود اللغة القاموسية، بل شمل اللهجات المحلية ، ولهجات العمال ، وأصحاب الحرف ، ومعتمداً أيضاً على حسه الموسيقى الدقيق سواء فى اختيار الكلمة المناسبة لموضعها أم فى اختيار الوزن الذى يماشى الفكرة أو العاطفة ، الوزن الخفيف السريع للفكرة القريبة والوزن الطويل للفكرة العميقة . . . مما كان له أثر فى إشاعة الحياة والحركة فى خرافاته .

أما الدرس الأخلاقى الذى كان غاية الخرافة عند كتابها الأوائل، فقد وفاه لافونتين حقه ، بل إنه جدد أيضا فى استخلاصه وفى عرضه . لم يسقه بالطريق المباشر الذى يشعر القارىء بأن هذا الدرس قد فرض عليه فرضاً ، وإنما جعل القارىء يستنبطه من تلقاء نفسه من خلال ترتيب أحداث الخرافة وتسلسل أفكارها ، كما أنه لم يجعل موضع هذا الدرس فى نهاية الخرافة شأن من سبقه من كتاب الخرافات ، وإنما جعل موضعه فى أول الخرافة حيناً وفى وسطها أو فى نهايتها حيناً آخر حسب ما كان يتطلبه الموقف .

هذا هو الجهد الذى بذله لافونتين فى فن الخرافة ، الذى بز فيه السابقين واللاحقين ، حتى صار مثالا لمن حاكوه فى الآداب جميعا [1] .

- والآن بعد أن عرفنا بلافونتين وأثره الأدبى الخالد «الخرافات» (Les Fables)

---

(١) أنظر أسماء مؤلفى الخرافات ممن نهجوا نهج لافونتين فى فرنسا وانجلترا والمانيا وهولندا واسبانيا وروسيا. Larousse du 20e Tome 3 p. 383. Paris 1930.

نستطيع أن نهتدى إلى سبب إقبال أدباء العربية على خرافاته ، بالنقل والترجمة حيناً ، وبالاقتباس والتقليد حيناً آخر ، على الرغم من وجود فن الخرافة فى أدبنا العربى القديم ، وعلى الرغم من أن آثارنا فى هذا الفن كانت مصدراً من مصادر لافونتين نفسه كما سبق أن بينا ،

- حقيقة إن الدافع الرئيسى للترجمة والنقل عن لغات أخرى هو استشعار الحاجة للمادة المنقولة، وهذه الحاجة هى التى دفعت العرب والمسلمين فى بداية تكوين دولتهم لترجمة الفلسفة والمنطق اليونانيين للدفاع عن الاسلام ومقارعة خصومه بالحجج القوية التى يتقنونها بحكم معرفتهم بالفلسفة اليونانية وأساليب الجدل المنطقى اليونانى . كما دفعتهم الحاجة إلى ترجمة كتب الطب اليونانى .

وأن الحاجة أيضاً هى التى دفعت مصر فى أوائل القرن التاسع عشر إلى ترجمة الكتب العلمية فى الطب والبيطرة والهندسة والزراعة والفلك والفنون العسكرية ... لتقيم نهضتها الحديثة : حربية واقتصادية وعمرانية .

ولكن ما الذى يدعو أدباء العربية إلى نقل خرافات لافونتين وليست الحاجة هنا ماثلة أو دافعة لهم على ذلك ؟

هناك عوامل أخرى تدفع إلى الترجمة وبخاصة فى مثل خرافات لافونتين التى نحن بصدد الكلام عنها .

أولها — عامل الاعجاب ، فهو الذى دفع أدباءنا باعترافهم هم أنفسهم - كما سنرى ذلك فيما بعد - إلى نقل وترجمة ومحاكاة خرافات لافونتين مثلهم فى ذلك مثل كتاب الخرافات الذين أعجبوا بخرافات لافونتين لا فى فرنسا وحدها بل فى العالم أجمع .

- وهناك عامل آخر يمكن أن نسميه العامل النفعى ، ويتمثل فى رغبة

أدبائنا فى اتخاذ أنجح الوسائل وأكثرها تشويقا فى تربية النشء وتوجيههم ، وخرافات لافونتين بما تضمنته من مواعظ أخلاقية ، وبالأسلوب المشوق الذى عرضت به تعد من أهم الكتب الأدبية التربوية وخاصة فى تربية النشء التى أرادها لافونتين من وراء خرافاته كما صرح فى مقدمتها .

- وثالث العوامل التى يمكننا أن نعزو إليها إقبال أدبائنا على خرافات لافونتين ، هو رغبة الرعيل الأول من أدبائنا فى أن يحببوا العرب فى الأدب الفرنسى - وهذا ما سنلمسه بوضوح عندما سنتحدث عن محمد عثمان جلال - بعد أن قوى اتصالنا بفرنسا فى أوائل القرن التاسع عشر ، عن طريق السياسة حيناً ، والبعثات العلمية حيناً آخر . ولقد كان لأعضاء البعثات العلمية التى أوفدتها حكومة مصر إلى أوربا وخاصة فرنسا فى ذلك الوقت فضل كبير فى إطلاعنا على ألوان من الأدب الفرنسى .

ولعل من تلك العوامل أيضا أن أدباءنا الذين اهتموا بخرافات لافونتين ، كانوا من طلائع المجددين ، فأرادوا ألا نقتصر على تراثنا الأدبى ، بل نتجاوزه إلى آداب غيرنا ، حتى فى الفنون التى كان لنا السبق فيها - كفن الخرافة - لنعرف ما طرأ عليها من تطور فى الفكر والصياغة ، وبذلك تتسع آفاق تفكيرنا وتتعدد نوافذ الرؤية الفنية أمامنا .

العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ

محمد عثمان جلال (١٢٤٥هـ — ١٨٢٨م) — ١٣١٦هـ — ١٨٩٨م)

كان محمد عثمان جلال أول من نقل منظومات لافونتـــين الخرافية إلى اللغة العربية ، بل إنه كان أول من قام بنقل عمل أدبى شعرى من لغة أجنبية فى العصر الحديث (١) .

ومحمد عثمان جلال أديب مصرى من صميم الريف من ونا القس بمديرية بنى سويف . نشأ فى عصر تكوين مصر الحديثة ، شهد فى خلاله تطور مصر فى عهد من حكامها : محمد على ، ابراهيم ، عباس الاول ، سعيد ، اسماعيل ، توفيق ، عباس الثانى . فكان ثمرة من ثمار هذا التطور ، ولبنـــة من اللبنات التى دفعته إلى الأمام .

تلقى تعليمـــه فى المدارس المصرية حتى تخرج من مدرسة الألسن على يد رفاعة رافع الطهطاوى رائد حركة الترجمة فى مصر ، ثم تولى عدة مناصب حكومية ، كان آخر ما تولاه منها منصب قاض فى المحاكم المختلطة عام ١٨٨١ م .

أما دوره فى حياتنا الأدبية فيبرز فيما نقله إلى اللغة العربية من آثار الأدب الفرنسى العالمية ، لصلته الوثيقة باللغة الفرنسية ، لأن اللغة الفرنسية كان لها مكان الصدارة بين اللغات الأجنبية فى مصر فى بدء نهضتنا الأدبيـة ، ولأنها كانت من المواد الأساسية التى تدرس فى مدرسة الألسن التى تخرج منها ، ولتعلقه هو نفسه

---

(١) قام رفاعه الطهطاوى بمحاولات قليلة لنقل بعض قصائد فرنسية متفرقة إلى اللغة العربية . توقف عندها لعدم رضائه عنها وصرح بأن الشعر يفقد كثيراً من روعته إذا ترجم من لغة إلى أخرى . أنظر : تخليص الابريز إلى تلخيص باريز ص ٥٧٦ .

بالعلوم الفرنسية وتعليمها لمواطنيه ، فكان من محاولاته فى هذا السبيل الكتاب الذى ألفه بعنوان «التحفة السنية فى لغتى العربية والفرنساوية» ١٢٨٨هـ واستهله بمقدمة قال فيها :

وبعد فاللغات فى كل زمن   لها مقام فى الأنام وثمن

وكل من يعرفها فريس   أو ترجمان الملك أو مدرس

ولأنه فضلا عن ذلك اتخذ الترجمة عن الفرنسية شغل حياته سواء فى أعماله الوظيفية أم فى أعماله الأدبية . فقد اشتغل مترجما بعد تخرجه من مدرسة الألسن فى مختلف الدواوين الحكومية : الديوان الخديوى، قلم الكورنتينا، ديوان الواردات، ديوان البحرية ، ديوان الجهادية ...

وقام فى أثناء أعماله الوظيفية بترجمة العديد من الكتب الفرنسية منها كتب علمية وعملية لسد حاجة الدواوين التى كان يعمل فيها ، مثل : كتاب تطبيق الأسلحة على الطريقة الجديدة ، وكتاب نصائح عمومية فى فن العسكرية ، وكتاب الضوء السارى فى تذكار السوارى، وكتاب عطار الملوك (فى العطريات من مياه وزيوت).

ومنها كتب أدبية ترجمها لإشباع ميوله الأدبية من ناحية ، ولاطلاع أبناء العربية على الآثار الأدبية العالمية فى اللغة الفرنسية من ناحية أخرى . مثل :

١ ـ رواية «بول وفرجينى» للكاتب الفرنسى برناردين دى سان بيير وقد سماها «الأمانى والمنة فى حديث قبول وورد جنة» ، وأخرجها سنة ١٨٧٢ م .

٢ ـ أربع ملاه لموليير : ترتوف وقد سماها الشيخ متلوف، والنساء العالمات، ومدرسة الأزواج، ومدرسة النساء وقد جمعها فى كتاب واحد بعنوان «الأربع روايات من نخب التياترات» ، وأخرجه سنة ١٨٨٩ م.

٣ - ثلاث مآسي لراسين : استير ، أفيجنى وسماها أفغانية ، والاسكندر الأكبر ، وجمعها فى كتاب واحد بعنوان « الروايات المفيدة فى علم التراجيدة » وأخرجه سنة ١٨٩٣ م .

أما منظومات لافونتين الخرافية التى نحن بصدد الكلام عنها ، والتى وضعها فى كتاب بعنوان « العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ » فكانت أول عمل أدبى قام بنقله عن الفرنسية - شرع فى نقلها فى عهد عبـــاس الاول ، وفى ذلك يقول « ونقل الملك - بعد وفاة ابراهيم باشا - إلى المرحوم عباس باشا - رحمه الله - فرتب المدارس بوجه آخر ، وجعل تلامذة الفقه يحضرون المحاسبة تحت نظارة عبد الرحمن بيك، قصداً لإزالة تسلط القبط على هذا الفن وجعله تحت يد المسلمين، وكنت أود أن أكون ضمن المحاسبين ، ولكن الله تعالى رزقنى بغير حساب ، ومن على بالصحة فى ديوانها ، فأخذت أترجم فى الاوقات الخالية كتاب لافونتين » وهو من أعظم الآداب الفرنساوية المنظومة على لسان الحيوان من باب الصادح والباغم وفاكهة الخلفاء ...» [1] وانتهى من ترجمة الكتاب فى عهد سعيد باشا ، وقدمه إليه آملا أن يظفر منه بالقبول الحسن ، ولكن سرعان ما خاب أمله ، ويصف لنا هذه الخيبة بالروح الفكهة الساخرة التى اشتهر بها فيقول:

« وعرضتها على الوالى بواسطة المرحوم مصطفى فاضل، وكان قد أوصلنى اليه محمد على الحكيم ، فما أثمر غرسها ، وما نفع درسها . فاتفقت مع رجل فرنساوى له مطبعة من الحجر ، يسمى يوسف بير ، وعهدته بطبعها فتعهد ، ثم أخلف ما وعد ، فكلفت مطبعة أكبر من مطبعته ، وصرفت عليها ما جمعت ونشرتها ، ثم بعت الحمار وبعتها ، وقلت فى ذلك :

---

(١) الخطط التوفيقية لعلى مبارك : حـ ١٧ ص ٩٣

راجى المحال عبيط	وآخر الزمر طيط
والناس فاتبان بخت	مروج وقليـــط
والعلم من غير حظ	لا شك جهل بسيط (١)

هذا الموقف الذى اصطدم به محمد عثمان جلال فى باكورة ترجماته الأدبية عن اللغة الفرنسية ، لم يكن مرجعه فى الواقع إلى خرافات لافونتين ، ولا إلى ناقلها محمد عثمان جلال نفسه، وإنما كان مرجعه إلى حالة الأدب وقتذاك ـ منتصف القرن التاسع عشر ـ وما كان يعانيه من جمود وانحطاط ، وإلى الذوق الأدبى العام الذى لم يكن قد تطور بعد إلى الدرجة التى تؤهله لاستساغة أى لون من ألوان التجديد ، حتى ولو كان للجديد أصل فى أدبنا العربى القديم . وقد أشار محمد عثمان جلال إلى هذه الحقيقة فى « العيون اليواقظ نفسها ، وفى ذلك يقول :

يقولون ما هذا الكتاب وما به	أكاذيب أقوال البهائم فى قبح
وقد زعموا أن البلاغة لم تكن	بأحسن مما قيل فى القد والرمح
وتشبيه لون الخد بالورد واللظى	وتمثيل نور الوجه إن لاح بالصبح
وما علموا أن الغراب وثعلبـــا	حديث النهى فيه وداعية النصح
وقولى صرار حكى مع نملة	فقصدى به التفريط يذهب بالربح
ولصان فى جحش صغير تشاجرا	فذلك كم شاهدته فى بنى الفلح
وقصة طاعون الوحوش رأيتها	كثيراً وكم من طعنها أوسعت جرحى
فيا قارئاً إن كنت بالقول ساخراً	ولم تدر شيئاً فالتعرض كالنبح
وإن كنت تدرى إنما بك جنة	ترجح حب الحرب فيك على الصلح
فما أنت إلا فى الحقيقة جاهل	وما لكلام قلت فى سوى الطرح (٢)

وحاول محمد عثمان جلال أن يؤكد فى « العيون اليواقظ » نفسها أنه لم يأت

(١) المرجع نفسه حـ ١٧ ص ٦٤

(٢) العيون اليواقظ : الحكاية ٩٧ (فى زجر القادح) ص ١٠٢

يبدعة فى الأدب العربى ، وأن ما قام به إحياء لسنة أدبية أتبعت من قبل فى عصر الازهار الأدبى ، وهي تأليف الحكايات المروية على ألسن الطير والحيوان نظما ونثراً فيقول :

يالائمى قصر عن الملام ... وإن تشأ لا تنتقد كلامى

إنى رويته عن ابن هانى ... وعن أبى العلا والأصفهانى

حليت ألفاظى بثوب الحلى ... وقد رويتها عن ابن سهل

لا تتـــهمنى حسبى التهامى ... زخرفت من كلامه بكلامى

وإن أكن أكثرت فى كتابى ... من قصص النعاج والذئاب

إياك أن تبخس قط ثمنه ... فقبـله كليـلة ودمنة

وقبله فاكـهة الخلفـــا ... والصادح الباغم حسبى وكفى (١)

ثم بين الهدف الذى أراد أن يحققه من إحياء تلك السنة الأدبية ، وهو لايقتصر على تحقيق المنفعة فحسب عن طريق إيراد الحكم والمواعظ الأخلاقية على ألسن الطير والحيوان ، وإنما يسعى إيضاً إلى تحقيق المتعة الفنية عن طريق هذا اللون القصصى الرفيع بدلا من القصص الرخيصة التى كانت شائعة ورائجة بين أبناء عصره ، مثل قصص أبى زيد الهلالى ، وعنترة ، والظاهر بيبرس ، وذات الهمة ، وقد أشار إلى ذلك فى قوله :

لكن أراك تعكس الآمالا ... تقول هذا ينفع الأطفالا

قل لى بالله على الصحيح ... بلفظك المستعذب الفصيح

حكاية تعلم الأطفالا ... وتسحر النساء والرجالا

أحلى وإلا سيرة لعنترة ... تقرأ فيها سنة وعشره

أوسيرة الظاهر أو ذى الهمة ... أراك لا تنطق لى بكلمة (٢)

---

(١) العيون اليواقظ : الحكاية ١٨٩ (زجر المؤلف للمعنف) ص ٢٠٢

(٢) المرجع نفسه

وهكذا كان محمد عثمان جلال مقتنعاً بقيمة الأثر الأدبى - خرافات لافونتين - الذى قام بنقله إلى اللغة العربية ، على الرغم من التهكم والفتور اللذين استقبل بهما ، بل إن هذا التهكم والفتور لم يثنياه عن مواصلة جهوده فى نقل روائع الأدب الفرنسى من القصص والمسرحيات التى سبق أن أشرنا اليها، والتى تعد هى والمسرحية الوحيدة التى ألفها «مسرحة الخدمين» من الدعائم الأساسية فى بناء نهضتنا القصصية والمسرحية فى العصر الحديث .

بدأ محمد عثمان جلال كتابة « العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ » بمقدمة نثرية ضمنها ترجمة لإيسوب اليونانى واضع الخرافات الحيوانية الأول فى الآداب الغربية ، تكلم فيها عن نشأته من أول حياته إلى نهايتها، وأورد كثيراً من الحكايات التى رويت عن ذكائه وحكمته وسرعة بديهته ، والظروف التى وضع فيها خرافاته ، دون أن يعلق على هذه الخرافات أو يورد أمثلة منها . أما لافونتين الذى نقل عنه خرافاته فلم يذكر إسمه أو يشر إليه، لا فى هذه المقدمة ولا فى خلال الكتاب . ويبدو أنه أراد الاكتفاء بذكر المصادر الأولى للخرافات سواء فى الآداب الغربية أم فى الأدب العربى ، وحسبنا من أدلة على نقله لخرافات لافونتين أنه هو نفسه قد صرح بهذا النقل فيما رواه عنه صاحب « الخطط التوفيقية » كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، وأن كثيراً من الخرافات التى وردت فى « العيون اليواقظ » قد وردت بالعناوين نفسها التى وضعها لافونتين ، متضمنة جميع تفاصيل خرافات لافونتين حينا ومكتفية بخطوطها الرئيسية حيناً آخر . وقد عددت منها ما يزيد على المائة خرافة (١).

---

(١) من أمثلة هذه الخرافات :

وانتقل محمد عثمان جلال بعد المقدمة التي تحدث فيها عن إيسوب إلى بيان محتويات كتابه « العيون اليواقظ » ومنهجه في تأليفه ، فقال :

وانظر فتلك روضة المعاني	ودوحة المنطق والبيـــان
نظمت فيها مائتي حكاية	وكلها بالحسن في نهاية
فيها إشارات إلى مواعظ	نافعـــة لكل واع حافظ
ضمنتها أمثالها والحـــكما	وربما استعرت قول الحكما

فالكتاب تضمن مائتي حكاية ، وقد رأينا معظمها منقول عن لافونتين ، وبقيتها عن مصادر عربية قديمة . وكل حكاية تضمنت مثلا أو حكمة ، استوحاها من تجاربه في الحياة أو نقلها عن مصدر كالقرآن الكريم ، أو الحديث الشريف ، أو الشعر العربي القديم ، أو الأمثال العربية ، أو الأمثال المصرية الشعبية .

فمن أمثلة ما اقتبس من القرآن الكريم :

قوله في خاتمة حكاية « المها الذي نظر نفسه في الماء »

---

١ — الصرار والنملة ص ٤	La Cigale et la Fourmi
٢ — الغراب والثعلب ص ٥	Le Carbeau et le Renard
٣ — الأرملة ص ١٦	La jeune veuve
٤ — السبع المريض والثعلب ص ٤٤	Le Lion malade et le Renard
٥ — آنية الفخار وآنية الحديد ص ٤١	Le pot de terre et le pot de fer
٦ — الحمار حامل الملح والحمار حامل الاسفنج ٥٦	L'Ane chargé d'eponges et l'ane chargé de sel,

وأنتم يا سامعى فانتبهوا   لاتكرهوا شيئاً عسى أن تكرهوا (١)

وقوله فى خاتمة « الحصان والذئب »

وهكذا فى الناس كل من بدا   بالخبث لا يخرج إلا نكدا (٢)

وقوله فى خاتمة حكاية « الجنايني وسيده »

وآية المسلوك أوردوها   إن دخلوا قرية أفسدوها (٣)

وقوله فى خاتمة حكاية « الضفدعة التى تريد أن تساوى الثور »

وهكذا ضلالها أوقعها   والنفس لا تحمل إلا وسعها (٤)

ومن أمثلة ما اقتبسه من الحديث النبوى الشريف قوله فى خاتمة حكاية « فى قبيح الزوجة »

ما كذب القائل فى أفكاره   قد حفت الجنة بالمكاره (٥)

وقوله فى خاتمة حكاية « وصية التاجر لأولاده »

أوصيكم فى العيش أن تتحدوا   من ينفرد فشمله مبدد

واشتركوا فى الرأى والبضاعة   إن يد الله مع الجماعة (٦)

---

(١) العيون اليواقظ ص ٢٢ ، يشير الى قوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » (سورة البقرة آية ٢١٦)

(٢) « « ص ١٣ ، يشير إلى قوله تعالى « والذى خبث لايخرج إلا نكدا » (سورة الأعراف آية ٥٨)

(٣) « « ص ١٤٦ ، يشير إلى قوله تعالى « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » (سورة النمل آية ٣٤)

(٤) « « ص ٧٠٦ ، يشير إلى قوله تعالى « لا تكلف نفس إلا وسعها » (سورة البقرة آية ٢٣٣)

(٥) الحكاية ٩٧ ص ٢١١   (٦) الحكاية ٦٨ ص ٧١

ومن أمثلة ما اقتبسه من الشعر العربى القديم ، بيت لأبى العتاهية اختتم به حكاية « الحمامة والنملة »

فمن أغاث البائس الملهوفا   أغاثه الله إذا أخيفا (١)

وبيت لابن المبارية اختتم به حكاية « الكنز والرجلين » .

والعيش بالرزق وبالتقـــدير   وليس بالرأى ولا التدبير (٢)

وبيت لمعن بن أوس اختتم به حكاية « الحلمان »

لعمرك ما أدرى ، وإنى لأوجل   على أينا تعدو المنية أول (٣)

وشطر بيت للمتنبى اختتم به حكاية « سوء البخت »

سمعته يشــتكى يوما فقلت له   تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن (٤)

ومن أمثلة ما اقتبسه من الأمثال العربيـــة قوله فى خاتمة حكاية « الحمار والكلب »

وهكذا فى الأصول قالوا   كما يدين الفتى يدان (٥)

وقوله فى خاتمة حكاية « الدبة وصاحبها »

وغالبـــا كل عدو عاقل   فى الناس خير من صديق جاهل (٦)

وقوله فى خاتمة حكاية « القط الذى صلب نفسه والفيران »

---

(١) الحكاية ٥٣ ص ٥٦   (٢) الحكاية ٦٤ ص ١٧٧

(٣) « ٣٤ ص ١٤٢   (٤) « ١٨٣ ص ١٩٧

(٥) « ٣١ ص ٣٤   (٦) « ١٣٤ ص ٣٦

وقد نجا من خاف منه وعلم　　　وهكذا فى الناس من خاف سلم(١)

ومن أمثـــلة ما اقتبسه من الأمثال المصرية الشعبية قوله فى خاتمة حكاية « الضفادع يطلبون ملكا يحكمهم »

إن كان بالتوت عضبان　　　هلبت يرضيه شرابه (٢)

وقوله فى خاتمة حكاية « فى الكلبتين »

قالت قالوها مثوله　　　اتمسكن لما تتمكن (٣)

وقوله فى خاتمة حكاية « الكلب الذى ترك الرغيف واتبع خياله »

ما حصلوا بالجهل فى أى زمن　　　لا عنب الشام ولا كرم اليمن (٤)

وقوله فى خاتمة حكاية « البنت البكر »

فلقد صح ههنـا　　　قول من قال فى النكت

خطبوها تعززت　　　تركوها تندمت (٥)

وقوله فى خاتمة حكاية « السيل والنهر »

واحذر مدى الأيام كل ساهى　　　فإن تحت رأسه الدواهى (٦)

وقوله فى خاتمة حكاية « الغابة والحطاب »

ما كدبوهاش اللى قالوا　　　خير تعمل شر تلقا (٧)

---

(١) الحكاية ٤٦ ص ٤٧　　(٢) الحكاية ٩٢ ص ٩٨
(٣) « ٩٤ ص ٩٤　　(٤) « ١٠٥ ص ١٠٨
(٥) « ٧٢ ص ٧٥　　(٦) « ١٥٣ ص ١٦٤
(٧) « ١٨١ ص ١٩٦

وقوله فى خاتمة حكاية « الديك الذى لقى لؤلؤة »

سبحانه يخص من شاء بما شاء من أهل الأرض أو أهل السما
القرط مع غير ذوى الآذان والفول مع غير ذوى الأسنان(١)

أما الخرافات التى نقلها عن لافونتين فلم تكن ترجمة بالمعنى الدقيق للترجمة وإنما جاءت تعريباً وتمصيراً لها ، وهى فى تعريبها وتمصيرها لم تتقيد بالأصل لا من ناحية الترتيب ولا من ناحية المحافظة على النص ، فقد كان محمد عثمان جلال يستوعب موضوع الخرافة وما تضمنه من أفكار ثم يصوغه صياغة من عنده ، يحافظ فيها حيناً على جميع تفاصيل الموضوع ، ويزيد عليها أو يحذف منها حيناً آخر ، وكان التوفيق يحالفه تارة ويجانبه أخرى حسب اقترابه أو بعده عن الخرافة التى ينقلها .

ولكى تتضح لنا طريقته فى نقل خرافات لافونتين، سنعرض نماذج من خرافاته ونقارنها بمثيلاتها عند لافونتين .

ففى خرافة « الحصان والذئب » يقول لافونتين :

Le cheval et le loup

Un certain loup, dans la saison

Que les tièdes zephyrs ont l'herbe rajeunie.
Et que les animaux quittent tous la maison.

Pour s'en aller chercher leur vie ;

Un lop. dis-je, au sortir des rigueurs de l'hiver,
Aperçut un cheval qu'on avait mis au vert.

---

(١) الحكاية ١٨٨ ص ٢٠٢

Je laisse à penser quelle joie.

« Bonne chasse, dit-il, qui l'aurait à son croc !
Eh ! que n'es-tu mouton ! car tu me serais Roc ;
Au lieu qu'il faut ruser pour avoir cette proie.
Rusons donc. » Ainsi dit, il vient à pas comptés ;

Se dit écolie. d'Hippocrate;

Qu'il connaît les vertus et les propriétés
De tous les simples de ces prés ;
Qu'il sait guérir, sans qu'il se blotte,

Toutes sortes de maux. Si dons coursier voulait
Ne point celer sa maladie.
Lui loup, gratis, le guérirait ;
Car le voir en cette prairie
Paitre ainsi, sans être lié,

Temoignait quelque mal, selon la médeine,
« Jai, dit la bête chevaline,
Une apostume sous le pied.

— Mon fils, dit le docteur, il n'est point de partie
Susceptible de tant de maux.
J'ai l'honneur de servir nosseigneurs les chevaux,
Et fais aussi la chirurgie. »

Mon galant ne songeait qu'à bien prendre son temps,
Afin de happer son malade.

L'autre, qui s'en doutait, lui lâche une ruade
Qui vous lui met en maronelade
Les mandibules et les dents.

« C'est bien fait, dit le loup en soié-même fort triste ;

Chacun à son métier doit toujours s'attacher.
Tu veux faire ici l'arboriste,
Et ne fus jamais que boucher.» (1)

ويقول محمد عثمان جلال :

الخيل في فصل الربيع تعتق ... وبين أنفـــاس النسيم تطلق
وقد حكوا أن حصاناً قد عصى ... وترك السوط وفارق العصا
وراح للراحة فوق المرج ... يشكو إلى الله عذاب السرج
واغتنم الحظ من البرسيم ... واستنشق الطب من النسيم
ومذ رآه الذئب زاد بأسه ... وحدثته بالقتـــال نفسه
لـــكنه أتى له بحيـــلة ... عساه يشفي في الدما غليله
قال اللئيم إنه حـــكيم ... وفي العلاج ذوقه سليم
وأنه قد جرب الحشائشا ... وعالج الفؤاد منها والحشى
ويسحق الياقوتا والمرجانا ... ويهب الناس الدوا مجانا
وقال يا حصان لي تعالى ... لا قيد في الرجل ولا شكالا
وكيف من غير لجام تمشي ... لا بد ذا من مرض في الكرش
قال الحصان دمل في رجلي ... من أثر القيد وضيق الحجل
قال الحكيم أرني يا ولدي ... كأن هذا دمل في كبدي،
وكل عضو قابل للداء ... ويطلب الحكيم للدواء،
وبينما الذئب يرجي فرصه ... إذ فلتت من الحصان رفصة:
فكمت في وجهة السرحان ... شكلت الأسنان باللسان

(1) Fable VIII du Livre V, «La Fontaine : Fables» Edition annotée par L. Clément p. 178

فانقلب الذئب وقال أف   خدعت أنى عفوة بكفى
لست حكيما فلماذا أدعى   وأبتغى بغياً وخيم المرتع
وهكذا فى الناس كل من بدا   بالخبث لا يخرج إلا نكدا (١)

وبمقارنة النصين نجد لافونتين قد جعل من تلك الخرافة التى أراد أن يحذر من خلالها من الادعاءات الكاذبة وعواقبها الوخيمة ، قصة متكاملة العناصر : مقدمة قصيرة ، حوار يكشف عن حيلة الذئب ، مفاجأة لم يتوقعها الذئب ، خاتمة تتضمن حكمة الخرافة .

بدأها بتمهيد للقاء الذئب بالحصان ، فجعل زمن هذا اللقاء فصل الربيع حيث يكون الجو معتدلا ، والحشائش مخضرة ، والحيوانات منطلقة فى المراعى تبحث عن قوتها . وفى إحدى تلك المراعى لمح الذئب الحصان يرعى ، فحدثته نفسه بافتراس هذا الصيد الثمين ، وسرعان ما اهتدى إلى حيلة ظن أنها تمكنه من غايته ، فتقدم إلى الحصان بخطوات وئيدة ، ودار بينهما حوار بدأه الذئب بتقديم نفسه إلى الحصان زاعماً أنه طبيب تلميذ أبقراط (أب الطب عند اليونان) ، وأنه يعرف خصائص كل أنواع الحشائش فى هذا المرعى ، ويعرف طريقة استخدامها فى معالجة مختلف الأمراض ، وأنه على استعداد لمعالجة « السيد » الحصان بالمجان ، إذا أطلعه على دائه ، وهو - أى الذئب - يرى أنه مريض لأن تركه يرعى بدون قيد وبدون لجام دليل على أنه مريض حقاً كما يقول الطب ، فشكا له الحصان من دمل فى قدمه ، فطمأنه الذئب إلى سهولة علاجه ، لأنه خبير أيضاً فى إجراء العمليات الجراحية . ولم يكد الذئب يتقدم للكشف عن قدم الحصان حتى رفسه رفسة سحقت أسنانه داخل فكيه ، فكانت مفاجأة لم يتوقعها الذئب ، وعندئذ لم

---

(١) العيون اليواقظ : « الحصان والذئب » الحكاية العاشرة ، ص ١٣ - ١٤

يسعه إلا أن يلوم نفسه وينطق بحكمة الخرافة قائلا فى حزن عميق ! « ينبغى على كل شخص أن يرتبط بمهنته ، فلا يزعم أنه طبيب ، وهو لم يكن أبداً سوى جزار » .

وينقل محمد عثمان جلال هذه الخرافة محافظاً على جميع معالمها، العنوان ، الفكرة ، الإطار القصصى الذى وضعت فيه بجميع عناصره : التمهيد ، الحوار ، المفاجأة ، الخاتمة . وكل ما أحدثه من تغيير هو نقل الخرافة إلى جو عربى إسلامى ، تشيع فيه روح الفكاهة بإضافة سحق الياقوت والمرجان بالإضافة إلى الأعشاب للمعالجة التى وردت فى خرافة لافونتين ، وتحديده الكرش مكاناً لداء الحصان ، والتعبير عن أسى الذئب لشكوى الحصان بأنه يشعر وكأن دملا فى كبده .

كما أن محمد عثمان جلال تحرر فى صياغة الخرافة من أسر النقل ، فابتعد عن لغة لافونتين الكلاسيكية الرفيعة وكتبها بلغة عربية سهلة ، وفى أسلوب تهكمى ساخر يضاهى أسلوب لافونتين من هذه الناحية حتى بدت الخرافة وكأنها من تأليفه على الرغم من قربها الشديد من خرافة لافونتين .

هذا نموذج من خرافات لافونتين التى وفق محمد عثمان جلال فى تعريبها ، وهناك نماذج أخرى تصرف فى تعريبها تصرفاً واسعاً طمس معالمها وأبعدها عن نصوصها الأصلية ، نذكر منها على سبيل المثال خرافة « السلحفاة والأرنب »

وفيها يقول لافونتين :

— Le Lièvre et la Tortue

Rien ne sert de courir ; il faut partir à point :

Le lièvre et la tortue en sont un temoignage.

Gageons, dit celle-ci, que vous n'atteindrez point

Sitôt que moi ce but. — Sitôt ? Etes-vous sage ?

Repartit l'animal leger :
Ma commère, il vous faut purger
Avec quatre grains d'ellébore.
— Sage ou non, je parie encore
Ainsi fut fait ; et de tous deux
On mit près du but les enjeux.
Savoir quoi ; ce n'est pas l'affaire,
Savoir quoi ; ce n'est pas l'affaire,
Ni de quel juge l'on convint.

Notre lièvre n'avait que quatre pas à faire ;

J'entends de ceux qu'il fait lorsque, prêt d'être attient,

Il s'éloigne des chiens, les envoie aux calends

Et leur fait arpenter les landes.

Ayant dis-je, du temps de rest pour brouter,

Pour dormir et pour écouter

D'où vient le vent. il laisse la tortue

Aller son train de sénateur
Elle part, elle s'evertue,
Elle se hâte avec lenteur

Lui cependant méprise une telle victoire,
Tient la gageure à peu de gloire,
Croit qu'il y va de son honneur
De partir tard. Il broute, il se repose :
Il s'amuse à tout autre chose
Qu'à la gageure. A la fin, quand il vit
Que l'autre touchait presque au bout de la carrière,
Il partit comme un trait ; mais les élans qu'il fit
Furent vains : la tortue arriva la première.
Hé bien ! lui cria-t-elle, avais-je pas raison ?
De quoi vous sert votre vitesse ?
Moi l'emporter ! et que serait-ce
Si vous portiez une maison ? (1)

ويعرب محمد عثمان جلال هذه الخرافة فيقول :

السلحفاة والارنب

حـــكاية ترجمتها بالعربى … فى سلحفا تسابقت مع أرنب
وحددا حدا على سفح الجبل … وجعلا جعــلا لاول وصل
فاستغرق الارنب نوما واتكل … على قوى سرعته فما اتصـــل
والسلحفاة داومت فى الجد … فوصلت إلى أصـــول الحد
ومذ صحا الارنب جاء يسعى … رأى هناك الســلحفاة ترعى

---

(1) Fable X du livre VI « La Fontaine : Fables »
Edition annotée par L. Clément p. 197

قال لك الجمل وكل الأجر   كم غافل عن رحمة لا يدرى
سعيت يا أختاه فى أعظم كد   وهكذا فى السعى من جد وجد[1]

وبمقارنة النصين نجد لافونتين قد جعل حكمة الخرافة فى بدايتها ، وهى « إذا أردت أن تصل إلى غايتك فلا تعتمد على قدرتك على الجرى السريع وإنما عليك أن تبدأ السير بميعاد محدد ، وأن تحذر الكسل فى الطريق » ثم ساق الخرافة كدليل على صحة تلك الحكمة . والخرافة عبارة عن حوار بين الأرنب والسلحفاة ، بدأته السلحفاة - وهى التى يضرب ببطئها المثل - بعرض اقتراح على الأرنب ، وهو المراهنة على سباق يجرى بينهما ، أثار هذا الاقتراح دهشة الأرنب وعجبه ، فأخذ يسخر منها ، ويتهكم عليها ، ويتهمها بالجنون ، ولكن ذلك لم يثن السلحفاة عن رغبتها ، وبناء على إصرارها قبل الأرنب أن يدخل معها فى سباق ، وهنا نجد لافونتين - كعادته فى تحليل شخصيات أبطال خرافاته - يتتبع تصرفات الأرنب والسلحفاة منذ بدء السباق ، فيصف كيف سارت السلحفاة بزحفها البطىء الطبيعى ولكن فى عزيمة قوية وأمل فى الانتصار واجتهاد لتحقيق هذا الأمل . أما الأرنب المتعالى المغتر بسرعته فقد رأى أنه أشرف له أن يترك السلحفاة تسبقه إلى مدى ، ثم ينقض وراءها فيدركها ويفوتها ويصل إلى غاية السباق قبلها . فراح يرعى مرة ، ويستريح ويرقد مرة أخرى ، ويتلهى حينا ، وعند ما رأى قرب دنو السلحفاة من آخر الشوط ولم يكن ذلك فى حسبانه ، انطلق كالسهم ، ولكن الوقت كان قد فات ، فوصلت السلحفاة قبله ورجع هو بالخيبة والخجل .

أما محمد عثمان جلال فقد حافظ على عنوان الخرافة ، وألم بموضوعها ، ولكنه خالف لافونتين فى طريقة عرضها وصياغتها ، اختصر خرافة لافونتين إلى ثلثها

---

(١) العيون اليواقظ ص ٢٣

تقريباً، فدخل مباشرة فى قصة السباق الذى عقد بين الأرنب والسلحفاة ، مكتفياً بسرد الخطوط العريضة للقصة ، فبين كيف اعتمد الأرنب على سرعته فاستغرق فى النوم ، بينما راحت السحلفاة تواصل سيرها فى دأب وجد حتى استطاعت أن تصل إلى نهاية الحد المتفق عليه فى السباق قبل أن يستيقظ الأرنب .

وبهذه الخلاصة الموجزة للخرافة أوصلنا إلى الحكمة التى هدفت إلى ابرازها والتى جاءت على لسان الأرنب فى النهاية « وهكذا فى السعى من جد وجد » .

مصر محمد عثمان جلال بعض خرافات لافونتين مقترباً منها حيناً ومبتعداً عنها حيناً آخر ، كما فعل فيما عربه من تلك الخرافات .

ففى خرافة « الثعلب والعنب » يقول لافونتين :

"Le Renard et les Raisins"

Certain Renard gascon, d'autres disent normand

Mourant presque de farm, vit au haut d'une trielle

Des raisins mûrs apparemment,

Et couverts d'une peau vermeille.

Le galant en eût fait volontiers un repas ;

Mais comme il n'y pouvait attendre :

« Ils sont trop verts, dit-il, et bons pour des goujats.»

Fit-il pas mieux que de se plaindre ?

---

(1) Fable XI du livre III « La Fontaine : Fables » Ed. annotée par L Clement p. 136

ويمصر محمد عثمان جلال هذه الخرافة فيقول :

الثعلب والعنب

حكاية عن ثعلب	قد مر تحت العنب
وشاهد العنقود فى	لون كلون الذهب
وغيره من جنبه	أسود مثل الرطب
والجوع قد أودى به	بعد أذان المغرب
فهم يبغى أكلة	منه ولو بالتعب
عالج ما أمكنه	يطلع فوق الخشب
فراح مثل ما أتى	وجوفه فى لهب
وقال هذا حصرم	رأيته فى حلب
والفرق عندى بينه	وبين تين العلب
فإن هذا أكله	يشبه لحم الارنب
ولحم ذاك مالح	كالضرب فوق الركب
قال له القطف انطلق	ثعلب ابن ثعلب
طول لسان فى الهوا	وقصر فى الذنب [1]

وبمقارنة للنصين نجد الثعلب - بطل الخرافة - عند لافونتين من غسقونيا أو نورمانديا - وهما مقاطعتان فرنسيتان - وفى نسبة الثعلب إلى إحدى هاتين المقاطعتين لفتة ماكرة من لافونتين إلى أن سكان غسقونيا ونورمانديا متخلقون بأخلاق الثعالب فى الزوغان والاحتيال .

---

(١) العيون اليواقظ ص ١٤

ثم سرد قصة هذا الثعلب الذى كان الجوع يودى بحياته عند ما رأى عريشا فوقه عنب ، ظاهر النضج بحباته المستديرة اللامعة التى تشبه عيون الشهب ، ولونه الجميـــل الذى يشبه لون الذهب ، فاشـــتهى أكله وأراد أن يعد لنفسه مأدبة منه ، ولكنه لما عجز عن الوصول إليه قال إن هذا العنب شديد الاخضرار لا يصلح إلا للأوباش ، واختتم لافونتين هذه الخرافة بتعليق ساخر على ذم الثعلب للعنب وذلك فى قوله « أليس هذا خيراً من الشكوى » عبارة موجزة تتضمن مغزى الخرافة التى تكشف عن خلق فريق من الناس يذمون الشىء الذى يعجزهم الوصول إليه بدلا من أن يلوموا أنفسهم ويعترفون بخيبتهم .

ونجد هذه الخرافة عند محمد عثمان جلال بعنوان خرافة لافونتين وفكرتها وتفاصيل موضوعها ، بل بتوسع فى سرد تفاصيل الموضوع ، ولكنها خالفتها فى الصياغة . فقد نقلها محمد عثمان جلال إلى جو مصرى . فاستبعد أسماء الاماكن الفرنسية التى ذكرها لافونتين ونسب إليها الثعلب (غسقونيا ونورمانديا ، لأنها فى الواقع لا تثـــير اهتمام القارىء المصرى ، وهو وإن كان لم ينسب الثعلب إلى مكان ما ، فإنه كثيراً ما كان ينسب أبطال خرافاته وأحداثها إلى أماكن مصرية وعربية (١) . واســـتخدم تشبيهات وتعبيرات مصرية : أسود مثل الرطب ،

(١) مثل قوله فى خرافة « الحمار حامل الملح والحمار حامل الاسفنج » ص ٥٦

حمار بولاق له شهير ... وفى البـلاد شغله كثير

وقوله فى خرافة « الذبابة والنملة » ص ٧٧

تشاحنت ذبابة مع نمله ... ما بين بولاق وبين الرملة

وقوله فى خرافة « الذئب الذى لبس ملابس الراعى » ص ٧٠

إنى سمعت حكاية فى المشرق ... عما جرى للذئب وهو يحلق

وقوله فى خرافة « القط والثعلب » ص ١٦٠

القط والثعلب لما اصطحبا ... وقال كل لأخيه مرحبا

قد طلبا الرحلة للحجاز ... واشتغلا فى العفش والجهاز

كالضرب فوق الركب . ثعلب ابن ثعلب ، واختتمها بالمثل المصرى الشائع (قصر ديل) الذى جاء على لسان العنب عند ما ذمه الثعلب

طول لسان فى الهوا   وقصر فى الذنب

فجاء هذا المثل معبرا تعبيراً صادقاً دقيقاً عن مغزى الخرافة ، والواقع أن خرافات لافونتين التى مصرها محمد عثمان جلال قد كشفت عن قدرته الفائقة فى التمصير ، استغلها فيما بعد فى كل ما نقله عن الفرنسية من قصص ومسرحيات عالمية.

لم يصطنع محمد عثمان جلال أسلوب التمصير ، وإنما مال إليه بطبعه ، فهو مصرى الأصل والمولد والنشأة . اختلط بالعامة اختلاطا واسعاً بحكم الوظائف المتعددة التى تنقل فيها ، فعرف عن قرب ميولهم وطباعهم وأمثالهم ونوادرهم ... ولذلك نقلها فى دقة وصدق ، كشفت عن البيئة المصرية بكل خصائصها : الروح المرحة ، والنكتة الحلوة ، والعادات والتقاليد ، وأسماء الشخصيات والأماكن . واللهجة المصرية بتعبيراتها وأساليبها الخاصة .

ولكن تعلقه بمصريته وافتتانه بكل ملمح من ملامحها ، قد دفعه إلى الكتابة بالعامية المصرية الخالصة ، فى مواضع ما كان ينبغى أن تستخدم فيها ، ومنها خرافات لافونتين ، الأثر الأدبى العالمى الذى صدر فى أزهى عصور اللغة الفرنسية ، وكان مؤلفه أحد الأدباء الذين شهد لهم بالتفوق اللغوى فى ذلك العصر.

فمن تلك الخرافات التى نظمها بالعامية المصرية الخالصة ، فأنزلها بذلك عن مستواها الأدبى الرفيع إلى مستوى شعبى ، خرافة « القطة التى قلبت امرأة » ففى هذه الخرافة يقول لافونتين :

« La chatte métamorphosée en femme ».

Un homme chérissaît éperdument sa chatte ;
Il la trouvait mignonne, et belle, et délicate,
Qui miaulait d'un ton fort doux :
Il était plus fou que les fous;

Cet homme donc, par prières, par larmes,

Par sortilèges et par charmes,
Fait tant qu'il obtient du Destin
Que sa chatte, en un beau matin,
Devient femme; et le matin même,
Maitre sot en fait sa moitié.
Le voilà fou d'amour extrème,
De fou qu'il était d'amitié.
Ne charma tant son favori,
Que faif cette épouse nouvlle

Son hypocondre de mari.
Il n'y trouve plus rien de chatte ;

Lorsque quelques souris qui rongeaient de la natte,

Troublèrent le repos des nouveaux mariés.

Aussitôt la femme est sur pieds :
Elle manqua son aventure.

Souris de revenir, femme d'être en posture.

Pour cette fois elle accurut à point;

Car ayant changé de figure,
Les souris ne la craignaient point.

Ce lui fut toujours une amorce,

Tant le naturel a de force.

Il se moque de tout, certain âge accompli.

Le vase est imbibé, l'étoffe a pris son pli.

En vain de son train ordinaire

On le veut désaccoutumer,

Quelque chose qu'on puisse faire,

On ne sau ait le réformer.

Coups de fourche ni d'étrivières

Ne lui font changer de manières ;

Et fussiez-vous embâtonnés,

Jamais vous n'en serez les maitres.

Qu'on lui ferme la porte au nez,

Il reviendra par les fenêtres. (1)

ويقول محمد عثمان جلال :

---

(1) Fables — Edition Annotée par L. Clément, Paris 1926 page; 118.

القطة التى قلبت امرأة

زى القصة دى ما يمكنشى	عن راجل و يبيع الطرشى
كان له قطه جوا بيته	مطرح ما كان يمشى تمشى
من حبــــه فيها يطعمها	روس الضانى ولحم الكرشى
قال يارب تبدلها لى	جاريه من نسوان الحبشى
حبه . ربه غيرها له	جاريه تسوى الفين قرش
راح السوق جاب ناموسيه	قبل المغرب ما اتأخرشى
بعد المغرب جا يتعشا	وياها بالقرع المحشى
هما على السفرا يتعشوا	إلا وفار فى القاعه يمشى
نطت دى الست دى اللى بتاكل	مسكت دى الفار اللى بيمشى
لما شافها سيدها تاكله	حتى جلده ما ترمهشى
قال يارب اسخطها قطه	دا اللى فهشى ما يخلهشى(١)

وبمقارنة النصين نجد لافونتين قد عنى بوصف بطلى الخرافة - القطة وصاحبها - فوصف جمال القطة ورقتها ومواءها العذب ، ووصف هيام صاحبها بها حتى إنه تمنى أن تتحول إلى إمرأة ليتزوج بها، ووصف المحاولات التى بذلها لتحقيق أمنيته كالإكثار من الدعاء ، وترديد التعاويذ ، والالتجاء إلى أعمال السحر ، إلى أن تحققت أمنيته فى صباح يوم جميل، فوجد القطة وقد تحولت إلى امرأة ليس فيها

---

(١) العيون اليواقظ ص ١٠٠

ومن الخرافات التى كتبها بالعامية المصرية الخالصة :

« فى السكليتين » ص ٩٩ . « الحمار والحصان » ص ٩٥ . « الضفادع يطلبون ملكا يحكمهم » ص ٩٦ . « الموت والحطاب » ص ٤٣ .

ملمح من ملامح القطة ، فما كان منه إلا أن تزوج بها فى اليوم نفسه ، وعاش معها فى سعادة لم يحظ بها زوج أجمل النساء ، ولكن الحياة لم تصف طويلا للعروسين ، فعند ما دخلت بعض الفئران إلى حجرتها وبدأت تقرض حصيرها ، انزعجت الزوجة . وسرعان ما عاودها عداؤها القديم للفئران عند ما كانت قطة ، فأخذت تتأهب للهجوم على تلك الفئران المرة تلو المرة ، ولكن الفشل كان يصاحبها فى كل مرة ، لأن الفئران لم تعد تخشـــاها فى صورتها الجديدة ، وهكذا أصبحت الفئران مصدر قلقها وشغلها الشاغل ، وما ذلك إلا لتمكن الطبع وغلبتـه ، وهو مغزى الخرافة. ولم يكتف لافونتين بإبراز هذا المغزى عن طريق المعالجة المتأنية اللطيفة فى الحكاية، وإنما راح يؤكده مبيناً استحالة تغيير الطبع بكل أساليب القوة ووسائل الإصلاح، وكأن الخرافة لم تكن لديه سوى ركيزة لمعالجة هذا الموضوع النفسى الذى يقوم بدور حساس فى حياة الإنسان .

وهذه الخرافة عند محمد عثمان جلال قد جاءت متفقة مع خرافة لافونتين فى النواحى الرئيسية التى سبق أن لمسناها عند المقارنة : العنوان . الفكرة . المغزى . ولكنها ابتعدت عنها كثيراً لا من حيث اللغة فحسب ، بل من حيث مجريات الأحداث ، والمواقف التحليلية ، وما تضمنته من دراسة نفسية . فقد تعجل محمد عثمان جلال فى الوصول إلى مغزى الخرافة فجعل الزوجة - التى كانت قطة - تلتهم الفأر فى نهم أمام عينى زوجها ، وجعـــل الزوج نفسه هو الذى يتوجه إلى الله ليرجعها قطة كما كانت « اللى فيشى ما يخلهوشى » .

ومما عرضناه فى هذه النماذج التى أجرينا فيها مقارنة بين ما كتبه محمد عثمان جلال وبين ما كتبه لافونتين تتبين لنا الحقائق التالية :

أولا : أن محمد عثمان جلال لم يكن مترجماً لخرافات لافونتين بالمعنى الحرفى

للترجمة وإنما كان ناقلا لها بتصرف يتفاوت مقداره من خرافة إلى أخرى معربة كانت أم ممصرة .

ثانياً : أن مصرية محمد عثمان جلال قد غلبت عليه إلى حد كبير ، وتجلى ذلك في استخدامه أمثالا شعبية مصرية ، وتعبيرات مصرية ، بل تعدى ذلك إلى الإضراب عن استخدام اللغة العربية الفصحى في بعض الخرافات وكتابتها بالزجل العامى المصرى .

ثالثاً : مزج محمد عثمان جلال بين مصدره الرئيسى في الخرافات وهي خرافات لافونتين ، وبين مصادر أخرى عربية استقى منها المغزى الخلقى ، كالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وأشعار العرب وأمثالهم .

رابعاً : تعددت الأوزان التى استخدمها محمد عثمان جلال تعدداً كبيراً ، وهو أحياناً يكتب في قافية موحدة ، وأحياناً أخرى يكتب في المزدوج .

خامساً : وهناك حقيقة أخرى كشف عنها دراسة « العيون اليواقظ » ، وهى أن محمد عثمان جلال لم يقتصر على نقل خرافات لافونتين ، ولكنه نقل من الشعر العربي وتاريخ العرب وأمثالهم حكايات عربية خالصة نذكر منها على سبيل المثال :

حكاية « الكرم »

حكاية عن رجل مهزول ... أمعاه قد خلت عن المأكول
في أرض قفر لم يكن بها سكن ... وما بها شيء عليه يرتكن
وذلك المهزول ذو تقشف ... بالبؤس عن كل نعيم يكتفى
أفرد في شعب عجوز شهربه ... أولادها من يبس كالخشبه
وقد رأى وسط الظلام شبحا ... فراعه وبعد لما وضحا

رآه ضيفاً فشكا عدم القرى ... إذ لم يكن شيء هناك ادخرا
فقال يااللهم ياللها ... لا تحرمن هذا النزيل طعما
قال ابنه لما رآه اهتما ... يا أبت اذبحني ويسر طعما
ولا تكن بعزمنا معتذرا ... فربما الضيف يظن يسرا
وأننا بمالنا بخلنا ... يوسعنا ذما بما عملنا
وبينما هما على التروى ... والأب ما زال لذبح ينوى
إذ لاح سرب من حمار الوحش ... جاء إلى الماء القراح يمشى
أمهلها حتى روت ظماها ... وبعد ذا بسهمه رماها
فسقطت من بينها أتان ... جسمانها بحضها ملآن
فجرها فى فرح لأهله ... وقام للضيف بفرض أكله
وبات كل منهم منعما ... فاغرموا بل غنموه مغنما
فهكذا وهكذا الفتوة ... والجود بالنفس هى المروة (١)

هذه الحكاية نقلها محمد عثمان جلال عن قصيدة الحطيئة المشهورة التى تعد من طلائع الشعر القصصى فى أدبنا العربى القديم ، والتى يقول فيها :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل ... ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما
أخى جفوة فيه من الانس وحشة ... يرى البؤس فيها من شراسته نعمى
وأفرد فى شعب عجوزاً إزاءها ... ثلاثة أشباح تخالهم بهما
حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملة ... ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما
رأى شبحا وسط الظلام فراعه ... فلما رأى ضيفا تشمر واهتما

---

(١) العيون اليواقظ ص ٢٠٨

فقال ابنه لما رآه بحيرة : ... وأيا أبت اذبحنى ويسر لهم طعما

ولا تعتذر بالعدم على الذى طرا ... يظن لنا مالا فيوسعنا ذما »

فروى قليلا ثم أحجم برهة ... وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما

وقال : هيا رباه ضيف ولا قرى ... بحقك لا تحرمه تاالليلة اللحما

فبينا هما عنت على البعد عانة ... قد انتظمت من خلف مسحلها نظما

ظماء تريد الماء فانساب نحوها ... على أنه منها إلى دمها أظما

فأمهلها حتى تروت عطاشها ... فأرسل فيها من كنانته سهما

فخرت نحوص ذات جحش فتية ... قد اكتنزت لحما وقد طبقت شحما

فيا بشره إذ جرها نحو ضيفهم ... ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدمى

فباتوا كراما قدقضوا حق أهله ... وما غرموا غرما وقد غنموا غنما

وبات أبوهم من بشاشته أبا ... لضيفهم ، والأم من بشرها أما (١)

ومن هذا النوع من الحكايات العربية المصدر حكاية (الذئاب والنعاج) :

لحا الله الخيانة كم تعيب ... وكم تعدو وتخطىء لا تصيب

وكم فى الأرض تظهر سيئات ... فيمسى فى حبائلها الحبيب

أراشت بالضغن سهم الأعادى ... فكل ابرء طعنتها الطبيب

إذا نظرت بعين الصلح فاحذر ... فإن الحرب شيمتها قريب

رويدك واستمع عنى حديثاً ... ينغص بذكره اللبن الحليب

ذئاب البر للغنام قالت ... رعاك الله يا هذا اللبيب

نروم الصلح ما دمنا سواء ... وعنـــد الصلح تغتفر الذنوب

---

(١) ديوان الحطيئة ، تحقيق نعمان أمين طه ــ مطبع مصر ١٩٥٨ ص ٣٩٦ــ٣٩٧

وهاك صغارنا رهناً علينا   إذا خفنا أو اختلفت قلوب
وتودع عندنا كبيك رهناً   وكل عن مساوئه يتوب
وقد رهنوا صغارهم لديه   وراحوا بالكلاب وذا عجيب
فربيت الصغار على شياه   وألفت الكلاب ولا حروب
وقد كبر الذئاب فكل ذئب   لشاة خان وهو لها ربيب
فقل للجرو كيف غدرت ظلماً   ومن أنباك أن أباك ذيب
إذا كان الطباع طباع سوء   فلا أدب يفيد ولا أديب (١)

فمصدر هذه الحكاية أمثال العرب والقصص التى وضعت لتفسيرها . ولعنى ما قالوه من أمثال فى غدر الذئب وخيانته كقولهم (كافأه مكافأة الذئب) وقصة هذا المثل كما رواها ابن الأعرابى ، أن اعرابيا ربى بالبادية ذئباً ، فلما شب افترس سخلة (٢) له ، فقال الأعرابى :

فرشت شويتى وفجعت طفلا   ونسواناً وأنت لهم ربيب
نشأت مع السخال وأنت طفل   فما أدراك أن أباك ذيب
إذا كان الطباع طباع سوء   فليس بمصلح طبعاً أديب (٣)

ومثل الحكايتين السابقتين حكاية (الديك الخصى والصقر)

حكاية إن تسمعها ترقص   عما جرى للصقر والديك الخصى
الديك يوما فر فوق السطح   خوفاً من الطباخ وقت الصبح

---

(١) العيون اليواقظ : ص ٤٥–٤٦
(٢) السخلة : ولد الشاة
(٣) مجمع الأمثال الميدانى : جـ ١ ص ٣٠٢

فوقفت تطلبه الصغار وهو يخوف ماله قرار
حتى لقد غروه بالصفير وأسمعوه صيحة الطيور
ومع هذا لم يسلم أبداً ولم يقرّب بل نأى وأبعدا
فجاءه الصقر وقال هل صمم فى أذنيك أيها الديك الأصم
كم ذا ينادون وأنت غافل إنك يا خل الدجاج جاهل
وإننا يا معشر الصقور أعقل ما يوجد فى الطيور
نصطاد فى البر وبعد نرجع وإن تنادينا الرجال نسمع
قال له الديك كذاك أسمع وبدل الأذنين عندى أربع
لكن تأمل وانظر المنادى فإنه من أعظم الأعادى
هذا هو الطباخ يا ابن ودى يرغب فى ذبحى وأكل كبدى
إنك لا تؤخذ مثلى للشوا دع عنك تمنيفى وذق طعم الهدى (١)

فمصدر هذه الحكاية ، حكاية عربية قديمة (البازى والديك) التى رواها الموريانى ـ وزير أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى ـ لجلسائه عند ما سألوه عن سبب ذعره لما استدعاه الخليفة ، مع أنه من رجاله المقربين ، فقال سأضرب لكم مثلا من أمثال الناس « زعموا أن البازى قال يوما للديك : ما فى الأرض شىء أقل وفاء منك . قال : وكيف ؟ قال : أخذك أهلك بيضة فحضنوك ، ثم خرجت على أيديهم فأطعموك على أكفهم ، ونشأت بينهم ، حتى إذا كبرت صار لايدنو منك أحد إلا طرت هاهنا ، وها هنا ، وضججت وصحت . وأخذت أنا من الجبال حصناً ، فعلمونى وألفونى ، ثم يخلى عنى فآخذ صيدى فى الهواء فأجىء به إلى صاحبى ، فقال له الديك : إنك لو رأيت من البزاة فى

(١) العيون اليواقظ ص ١٥٤ ـ ١٥٥

سفافيدهم (١) مثل ما رأيت من الديوك لكنت أنفر منى » . (٢)

هذه أمثلة من الحكايات التى نقلها محمد عثمان جلال من مصادر عربية وضمنها كتابه (العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ) إلى جانب ما نقله من خرافات لافونتين . وهذه الحكايات فى الواقع قد كشفت عن المنابع القصصية فى أدبنا العربى القديم ، التى يمكن أن تستقى منها الحكايات الوعظية ، وتصاغ على طريقة (خرافات لافونتين) محققة المتعة الفنية والأهداف التربوية .

---

(١) سفافيد : جمع سفود ، حديدة يشوى عليها اللحم

(٢) كتاب الحيوان للجاحظ . ج ٢ ص ٣٦١ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون / الطبعة الثانية / طبع القاهرة سنة ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م

الحكايات

لأحمد شوقى (١٨٦٩ – ١٩٣٢)

وكما اجتذبت خرافات لافونتين محمد عثمان جلال ، اجتذبت شاعراً معاصراً له ، هو أحمد شوقى أمير الشعراء ، ولعله اطلع على ما نقله محمد عثمان جلال من خرافات لافونتين فى (العيون اليواقظ) ، لأن هذا العمل الأعلى الرائد لا يتصور أن يكون مجهولا لدى شاعر مثل شوقى .

وشوقى من شعرائنا المحدثين الذين جمعوا بين الثقافتين العربية والفرنسية ، درس الفرنسية فى مصر فى مدرسة الحقوق ثم فى قسم الترجمة الذى ألحق بها ؛ ومارس بعد تخرجه فى هذا القسم العمل بالترجمة فى القلم الافرنجى بالقصر الخديوى فى عهد الخديوى توفيق ، ثم فى عهد الخديوى عباس الثانى ، وكان ذلك بعد عودته من بعثة فى فرنسا ، التى أوفده اليها الخديوى توفيق (١٨٨٨) ، والتى زادته صلة بالثقافة الفرنسية . فقد أتاحت له هذه البعثة الاطلاع على مظاهر الحضارة الفرنسية بعامة والأدب الفرنسى بخاصة ، فاطلع على آثار أعلام الشعر الفرنسى من أمثال لافونتين وفيكتور هيجو ولامرتين والفريد دى موسيه ، ووقف على الفرق الشاسع بين شعرهم وبين الشعر العربى فى عصره ، وبذلك تغير فهمه لرسالة الشاعر ، وتاقت نفسه إلى التجديد محلقاً فى الآفاق الرحبة التى حلق فيها الشعر الفرنسى ، وقد صرح بذلك فى المقدمة التى كتبها بنفسه (للشوقيات) فى طبعتها الأولى التى ظهرت فى حياته (١٨٩٨ م) وفيها يقول : (إن إنزال الشعر منزلة حرفة تقوم بالمدح ولا تقوم بغيره تجزئة يجل عنها ويتبرأ الشعراء منها . إلا أن هناك ملكا كبيراً ما خلقوا إلا ليتغنوا بمدحه ، ويتفننوا بوصفه ، ذاهبين فى ذلك كل مذهب ، آخذين منه بكل نصيب ، وهذا الملك هو الكون .

فالشاعر من وقف بين الثريا والثرى ، يقلب إحدى عينيه فى الدر ويجيل أخرى فى الذرى . يأسر الطير ويطلقه ، ويكلم الجماد وينطقه ويقف على النبات وقفة الظل ، ويمر بالعراء مرور الوبل ، فهناك ينفسح له مجال التخيل ، ويتسع له مكان القول، ويستفيد من جهة علماً لا تحويه الكتب ولا توعيه صدور العلماء. ومن جهة أخرى يجد من الشعر مسلياً فى الهم ، ومنجياً من الغم ، وشاغلا إذا أمل الفراغ، ومؤنساً إذا تمكنت الوحشة ومن جهة ثالثة لا يلبث أن يفتح الله عليه ، فإذا الخاطر أسرع ، والقول أسهل ، والقلم أجرى ، والمادة أغزر ...)

ولكن شوقى لم يستطع أن يمضى فى دعوته إلى التجديد ، كما أنه لم يستطع أن يحققها إلا فى نطاق ضيق. وسبب ذلك - كما يقول شوقى فى المقدمة نفسها - خشيته من الطفرة فى التجديد ، لأن التقاليد الفنية السائدة وقد سماها (الأوهام) إذا تمكنت من قوم أصبحت كالأفعى التى لا يقدر الإنسان على محاربتها وجهاً لوجه ، فعليه أن يحاصرها شيئاً فشيئاً ويتحايل عليها حتى يتمكن منها دون أن تؤذيه .

ويمكننا أن نضيف إلى هذا السبب سبباً آخر ، هو أن مهمة الشاعر الرئيسية كانت فى أواخر القرن التاسع عشر تخليص الشعر من العجمة والركاكة والمحسنات البديعية التى ورثها من عصور الضعف والانحطاط ، ورده إلى ما كان عليه فى عصوره الذهبية . وقد أدى شوقى دوره فى هذه المهمة التى حمل لواءها البارودى من قبله خير أداء .

وعلى الرغم من تضافر ظروف لم تتح لشوقى فرصة التجديد كاملة ، فقد كان لدوره المحدود فى التجديد أثر لا ينكر فى تطور الشعر العربى الحديث . وإن كان المجال هنا لا يتسع لتتبع هذا الأثر فحسبنا أن نشير إلى أهم ما حققه شوقى فى مجال التجديد ، وهو القصائد التاريخية وخاصة قصيدته (كبار الحوادث فى وادى

النيل) (١٨٩٤ م) التى تأثر فيها بفيكتور هيجو فى ديوانه (أحاديث القرون).
المسرحية الشعرية التى تأثر فيها بالمسرح الفرنسى الكلاسيكى .

الخرافات المنظومة التى قلد فيها خرافات لافونتين ، وهى موضوع دراستنا
فى هذا البحث .

لقد صرح شوقى فى مقدمة ديوانه (١٨٩٨ م) بمحاكاته للافونتين فى نظم الخرافة فقال : (جربت خاطرى فى نظم الحكايات على أسلوب لافونتين الشهير . وفى هذه المجموعة شىء من ذلك ، فكنت إذا فرغت من وضع أسطورتين أو ثلاث أجتمع بأحداث المصريين ، وأقرأ عليهم شيئاً منها يتفهمونه لأول وهلة ويأنسون اليه ويضحكون من أكثره ، وأنا استبشر لذلك ، وأتمنى لو وفقنى الله لأجعل لأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال فى البلاد المتمدنة ، منظومات قريبة المتناول ، يأخذون الحكمة والأدب من جلالها على قدر عقولهم) .

ويناشد أدباء عصره أن يسهموا فى هذه المهمة ، ويخص بالذكر منهم الشاعر الكبير خليل مطران فيقول :

(وهنا لايسعنى إلا الثناء على صديقى خليل مطران، صاحب المنن على الأدب ، والمؤلف بين أسلوب الافرنج فى نظم الشعر وبين منهج العرب ، والمأمول أن نتعاون على إيجاد شعر للأطفال، وأن يساعدنا سائر الأدباء والشعراء على إدراك هذه الأمنية) .

وواضح مما ذكره شوقى أن الدافع الرئيسى له على نظم الخرافات ، هو الرغبة فى إيجاد شعر للأطفال له هدف تعليمى ، ويبدو أن هذه الرغبة كانت صادقة إلى حد بعيد ، بل لعلها أكثر صدقاً من هذه الناحية من لافونتين نفسه ، إذ يرى بعض الدارسين للافونتين ، أن لافونتين فى حياته الخاصة كان بعيداً عن حب

الأطفال والعناية بهم ، حتى طفله الوحيد لم يكن موضع اهتمامه (١) .

فالرغبة إذن فى الكتابة للاطفال خاصة لم تكن الهدف الأول للافونتين بقدر ما كانت هدفا لشوقى الذى يؤكد لنا تاريخ حياته وسائر شعره، حبه للاطفال بعامة وأطفاله بخاصة ، وانشغاله بمستقبلهم ، وعطفه على الفقراء منهم ، وحرصه على تثقيفهم لا فى الخرافات المنظومة فحسب وإنما فى قصائد ومقطعات من شعره (٢).

وازداد اهتمام شوقى بنظم الخرافات بعد أن جرب بنفسه تأثيرها على أحداث المصريين كما قال فى المقدمة السابقة ، فأخذ يتابع نظمها ، ولكنه لم يعن بجمعها فى ديوان خاص كما فعل لافونتين ، بل نشر عدداً منها فى حياته فى الطبعة الأولى من الشوقيات (١٨٩٨ م) وأعاد نشرها فى الطبعة الثانية (١٩١١ م) ، ولكن الطبعات التالية للشوقيات أهملت نشر الخرافات ، حتى كادت تتعرض للضياع لولا أن تداركها محمد سعيد العريان الذى قام بتحقيق ونشر الجزء الرابع من الشوقيات سنة ١٩٤٣ ، فأفرد لها بابا فى هذا الديوان بعنوان (الحكايات) جمع فيه ما تفرق من خرافات شوقى إلى جانب ما نشر منها فى طبعة الشوقيات الأولى . وعدد هذه الخرافات أو كما سماها (الحكايات) خمس وخمسون حكاية ، تقع فى تسعة وسبعمائة بيت، و وصل هذا العدد إلى ست وخمسين حكاية فى الطبعة الثانية للجزء

---

(١) "La Fontaine et les enfants" page 9, La Fontaine-Fables- Edition Annoncée par L. Clément.

(٢) انظر الشوقيات : ج ٢ قصيدة مصاير الأيام
و ج ٤ أمينة (ص ٩٨) ، طفلة لاهية (ص ٩٩) ، لعبة (ص ١٠٢) « وديوان الأطفال » وهو باب فى الجزء الرابع يشتمل على مجموعة من القصائد والمقطعات نظمها لتكون أدبا وثقافة للاطفال . مثل الهرة والنظافة ، الأم ، الجدة ، الوطن ، الرفق بالحيوان ، المدرسة ، نشيد الكشافة ، نشيد الكشافة .

الرابع من الشوقيات (١٩٥١) وتقع فى ثلاثين وسبعمائة بيت .

وفى سنة ١٩٦١ عثر محمد صبرى (السربونى) على حكايات أخرى لشوقى ، فنشرها فى كتابه (الشوقيات المجهولة) الذى ضم فيه آثار شوقى التى لم يسبق نشرها [١] .

وعلى الرغم من هذا الإهمال الذى تعرضت له حكايات شوقى فإنها قد شاعت قبل أن تجمع فى الجزء الرابع من الشوقيات ، وفى الشوقيات المجهولة ، وعرفت طريقها إلى الكتب المدرسية ، مثل (اليمامة والصياد) ، (والثعلب والديك) ، (والوطن) وهى حكاية عن عصفورين أبيا ترك وطنها الحجاز والذهاب إلى بلاد اليمن حيث الطعام والشراب أوفر وأشهى [٢] .

وتدور الحكايات المنظومة عند شوقى حول موضوعات شتى :

منها موضوعات إنسانية عامة ، تكشف عن نواحى الخير والشر فى الإنسان وما يترتب عليها من عواقب مثل حكاية (سليمان عليه السلام والحمامة) وهى تحكى قصة الفضول الإنسانى ، وسقوط الإنسان فى هوة الخيانة :

---

(١) من الحكايات التى عثر عليها محمد صبرى السربونى : « دولة السوء » (ص٢٢١) فى الجزء الأول من الشوقيات المجهولة طبع القاهرة سنة ١٩٦١ .

و « الصياد والعصفورة » (ص ٢٦٦) فى الجزء الثانى من الشوقيات المجهولة . طبع القاهرة سنة ١٩٦٢ . وسبق نشرها فى الجزء الرابع من الشوقيات (ص ١٢٥) .

وفى الجزء الثانى من الشوقيات المجهولة توجد أيضاً حكاية « المنار وحارس المنار ودلفين » (ص ٢٣٣)

« وجزاء الإحسان بالكفران » (ص ٢٧٢)

(٢) هذه الحكايات فى الجزء الرابع من الشوقيات ص ١٧٢ ، ١٥٠ ، ١٩٠

كان ابن داود يقـــرب في مجالسه حمامه

خدمته عمرا مثلما   قد شاء صدقا واستقامه

فمضت إلى عماله   يوما تبلغهم سلامه

والكتب تحت جناحها   كتبت لها فيها الكرامه

فأرادت الحمقاء تعر   ف من رسائله مرامه

عمدت لأولها وكا   ن إلى خليفته برامه (١)

فرأته يأمر فيه عا   مله بتـاج للحمامه

ويقول وفوها الرعا   ية فى الرحيل وفى الإقامه

ويشير فى الثـانى بأن   تعطى رياضـا فى تهامه

وأتت لثـالثها ولم   تستحى ان فضت ختامه

فرأته يأمر أن تكو   ن لها على الطير الزعامه

فبكت لذاك تنـدما   هيهات لا تجدى الندامه

وأتت نبى الله وهـى تقول يارب السلامه

قالت فقدت الكتب يا   مولاى فى أرض اليمامه

. . . لتسرعى لما أتا   نى الباز يدفعنى أمامه

فأجاب بل جئت الذى   كادت تقوم له القيـامة

لـكن كفاك عقوبة   من خان خانته الكرامة (٢)

ومثل حكاية (الكلب والحمامة) التى تكشف عن الروح الخيرة فى الإنسان ، والتى لا يعدم صاحبها أن يجد الجزاء على ما قدم للآخرين من عون وإحسان :

---

(١) برامه : اسم مكان   (٢) الشوقيات جـ ٤ ص ١٦٨

حكاية الكلب والحمامة … تشهد للجنسين بالكرامه
يقال كان الكلب ذات يوم … بين الرياض غارقا فى النوم
فجاء من ورائه الثعبان … منتفخاً كأنه الشيطان
وهم أن يغدر بالأمين … فرقت الورقاء للمسكين
ونزلت توا تغيث الكلبا … ونقرته نقرة فهبا
فحمد الله على السلامه … وحفظ الجميل للحمامه
إذ مر ما مر من الزمان … ثم أتى المالك للبستان
فسبق الكلب لتلك الشجره … لينذر الطير كما قد أنذره
واتخذ النبح له علامة … ففهمت حديثه الحمامه
وأقلعت فى الحال للخلاص … فسلمت من طائر الرصاص
هذا هو المعروف يا أهل الفطن … الناس بالناس ومن يعن يعن (١)

ومن الموضوعات التى تناولها شوقى فى حكاياته ، موضوعات تتصل بالحياة القائمة فى عصره ، اجتماعيـــة وسياسية . مثل حكاية (الديك الهندى والدجاج البلدى) التى قصد فيها تنبيه المواطنين إلى وجوب الحذر فى علاقتهم بالأجنبى الدخيل ، وكانت هذه قضيـــة عصره . وقد رمز إلى الأجنبى الدخيل بالديك الهندى ، وإلى المواطنين بالدجاج البلدى ، مبيناً الأساليب التى اتخذها الديك الهندى لتوطيد أقدامه فى بيت الدجاج البلدى ، الذى لم يفطن إلى تلك الأساليب إلا بعد فوات الأوان ، وهى الأساليب نفسها التى دخل بها الانجليز مصر فى ذلك العهد : المزاعم الباطلة فى الرغبة فى الإصلاح ونشر العدل والأمن فى البلاد، والوعود الكاذبة فى إقامة مؤقتة تنتهى بانتهاء الإصلاحات ، واستتباب الأمن .

(١) الشوقيات : ج ٤ ص ١٦٨

وتقول الحكاية :

بينــــا ضعاف من دجاج الريف ... تخصر فى بيت لها خريف
إذ جاءها هندى كبير العرف ... فقام فى الباب قيام الضيف
يقول حيـــا الله ذى الوجوها ... ولا أراها أبداً مكروهـا
أتيتــــكم أنشر فيكم فضلى ... يوماً وأقضى بينكم بالعدل
وكل ما عنـــدك حرام ... على إلا الماء والمنام
فعاود الدجاج داء الطيش ... وفتحت للعلج باب العش
فجـــال فيه جولة المليك ... يدعو لكل فرخة وديك
وبات تلك الليلة السعيدة ... ممتعـــاً بداره الجديدة
وباتت الدجاج فى أمان ... تحلم بالذلة والهوان
حتى إذا تهلل الصبـــاح ... واقتبست من نوره الأشباح
صاح بها صاحبها الفصيح ... يقول دام منزلى المليح
فانتبهت من نومها المشئوم ... مذعورة من صيحة المشئوم
تقول : ما تلك الشروط بيننا ... غدرتنا والله غدراً بيناً
فضحك الهندى حتى استلقى ... وقال ما هذا العمى يا حمقى
متى ملكتم ألسن الأرباب ... قد كان هذا قبل فتح الباب [1]

ويستمر شوقى فى طرق هذا الموضوع فى حكاية (أمة الأرانب والفيل) التى تحكى قصة الهزيمة الإنسانية ، ومدى قدرتها على التغلب على القوة الباغية المعتدية بالاتحاد والتعاون . وقد قصد شوقى تنبيـــه مواطنيه من خلال تلك الحكاية إلى ضرورة اتحادهم وتعاونهم لمجابهة الانجليز الدخلاء ، الذين جعلوا من التفرقة بين

---

(١) الشوقيات جـ ٤ ص ١٢٨

عناصر الأمة ، هدفاً لتحقيق مآربهم من مصر

وتقول الحكاية :

يحكون أن أمة الأرانب ... قد أخذت من الثرى بجانب
وانتهجت بالوطن الكريم ... وموئل العيال والحريم
فاختاره الفيل له طريقاً ... ممزقاً أصحابه تمزيقا
وكان فيهم أرنب لبيب ... أذهب جلَّ صوفه التجريب
نادى بهم يا معشر الأرانب ... من عالم وشاعر وكاتب
اتحدوا ضد العدو الجافي ... فالاتحاد قوة الضعاف
فأقبلوا مستصوبين رأيه ... وعقدوا للاجتماع رايه
وانتخبوا من بينهم ثلاثة ... لا هرما راعوا ولا حداثه
بل نظروا إلى كمال العقل ... واعتبروا في ذلك سنّ الفضل
فنهض الأول للخطاب ... فقال : إن الرأي ذا الصواب
أن تترك الأرض لذي الخرطوم ... كي نستريح من أذى الغشوم
فصاحت الأرانب الغوالي : ... هذا أضر من أبي الأهوال
ووثب الثاني فقال إني ... أعهد في الثعلب شيخ الفن
فلندعه يمدنا بحكمته ... ويأخذ اثنين جزاء خدمته
فقيل : لا يا صاحب السمو ... لا يدفع العدو بالعدو
وانتدب الثالث للكلام ... فقال يا معشر الأقوام
اجتمعوا فالاجتماع قوة ... ثم احفروا على الطريق هوه
يهوى إليها الفيل في مروره ... فنستريح الدهر من شروره
ثم يقول الجيل بعد الجيل ... قد أكل الأرانب عقل الفيل
فاستصوبوا مقاله واستحسنوا ... وعملوا من فورهم فأحسنوا

وملك الفيل الرفيع الشان   فأصبحت الأمة في أمان
وأقبلت لصاحب التدبير   ساعية بالتاج والسرير
فقال مهلاً يا بني الأوطان   إن محلي للمحل الثاني
فصاحب الصوت القوي الغالب   من قد دعا يا معشر الأرانب (١)

وهناك أمثلة كثيرة من الحكايات التي استلهم شوقي موضوعاتها من الحياة القائمة في عصره ، مثل حكاية (نديم الباذنجان) (٢) التي تشير إلى تملق رجال البلاط لصاحب السلطان ، وحكاية (ملك الغربان وندور الخادم) (٣) التي تشير إلى استخفاف الملوك بنصائح المخلصين من رعاياهم ، وحكاية (الأسد ووزيره الحمار) (٤) التي تشير إلى سوء اختيار الملوك لأعوانهم ، وأثر ذلك في فساد الحكم واضطرابه .

هذه الحكايات وما جاء على شاكلتها ، كانت فيما نعتقد متنفساً لشوقي عما تعرض له من كيد الناس في حياته ، وعما تعرضت له مصر من مفاسد في حياة الاستعمار والملكية .

وإلى جانب هذه الموضوعات ، اقتبس شوقي موضوعات معينة من خرافات لافونتين ، مثل الموضوع الذي صور فيه لافونتين حيلة من حيل الثعلب للإيقاع بديك اشتهى أكله ، وذلك في حكاية (الديك والثعلب) . فهذه الحكاية عند لافونتين (٥) تحكي قصة ثعلب رأى على فرع شجرة عالية ديكاً مسناً ، فاقترب منه

---

(١) الشوقيات جـ ٤ ص ١٤٢

(٢) المرجع نفسه ص ١٢١   (٣) المرجع نفسه ص ١٣٥

(٤) الشوقيات : جـ ٤ ص ١٤٧

(٥) La Fontaine-Fables - Fable XV. - Livre I, Page 116. Le coq et le renard.

وألقى عليه بصوت رقيق تحية الود والأخوة ، وأخبره أنه قد أتاه ليزف اليه بشرى الصلح والسلام ، وأن عليه وإخوانه الديوك أن يقيموا فى هذا المساء حفلا كبيراً احتفالا بهذه المناسبة السعيدة ، ورجاه أن يسرع فى النزول اليه ليحتضنه ويقبله قبلة الحب الأخوى قبل أن يمضى فى طريقه، فقال له الديك يسعدنى ياصديقى أن أسمع خبر السلام بيننا ، ولكن انتظر قليلا فإننى أرى كلبين مسرعين نحونا ، وفى لحظة سيكونان عندنا ، وعندئذ سأنزل لنحتفل جميعاً بعهد السلام ونتبادل القبلات . وهناك لم يسع الثعلب إلا أن يودع الديك ، زاعماً أن أمامه مشواراً طويلا ، وأن وقته لا يتسع الآن للاحتفال بعهد السلام ، وأطلق ساقيه للريح ، فشيعه الديك بالضحكات ، لأنه استطاع أن يخدع مخادعا .

اقتبس شوقى موضوع هذه الخرافة، ولكنه أضفى عليه شخصيته إلى حد بعيد وأعمل فيه فنه بالتحوير والتبديل ، ووضع فيه لمسات عربية وإسلامية فقال :

الثعلب والديك

برز الثعلب يوما ... فى شعار الواعظينا
فمشى فى الأرض يهذى ... ويسب الماكرينا
ويقول الحمد للـ ... ـه إلـه العالمينا
يا عباد الله توبوا ... فهو كهف التائبينا
وازهدوا فى الطير إن العيـ ... ـش عيش الزاهدينا
واطلبوا الديك يؤذن ... لصلاة الصبح فينا
فأتى الديك رسول ... من إمام الناسكينا
عرض الأمر عليه ... وهو يرجو أن يلينا
فأجاب الديك عذراً ... يا أضل المهتدينا
بلغ الثعلب عنى ... عن جدودى الصالحينا

عن ذوى الشيجسان ممن ... وشل البطن الأمينا
أنهم قالوا وخير الـ ... قول قول العارفينا
عاطىء من ظن يوما ... أن للثعلب دينا (١)

وهناك من حكايات شوقى ما استقى موضوعها من مصدر عربى قديم كما نرى فى حكاية (الصياد والعصفورة) . فهذه الحكاية قد أوردها ابن عبد ربه فى العقد الفريد فى كتاب (الجوهرة فى الأمثال) تحت عنوان (مثل فى الرياء) وقد سبق أن أشرنا اليها فى الباب الأول من هذا البحث (الخرافة فى الأدب العربى) ولكننا نعود إلى ذكرها لتكون بازاء حكاية شوقى ، فتتضح لنا الطريقة التى تناولها بها .

يقول ابن عبد ربه ، عن وهب بن منبه قال : (نصب رجل من بنى اسرائيل فخاً فجاءت عصفورة فنزلت عليه ، فقالت : مالى أراك منحنياً ؟ قال : لكثرة صلاتى انحنيت . قالت : فمالى أراك بادية عظامك ؟ قال : لكثرة صيامى بدت عظامى . قالت : فمالى أرى هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادتى فى الدنيا لبست الصوف . قالت : فما هذه العصا عندك ؟ قال : أتوكأ عليها وأقضى حوائجى . قالت : فما هذه الحبة فى يدك ؟ قال : قربان إن مر بى مسكين ناولته إياها . قال : فخذيها فدنت ، فقبضت على الحبة ، فإذا الفخ فى عنقها ، فجعلت تقول : قعى قعى . تفسيره لا غرنى ناسك مراء بعدك أبداً) .

نظم شوقى هذه الحكاية فى قالب قصصى مشوق . بدأها بمقدمة من عنده مهدت للحكاية ، ثم ساق الحكاية بكل تفاصيلها التى ذكرها ابن عبد ربه ، وأنهاها بخاتمة تضمنت مغزاها وموضع العبرة فيها فقال :

---

(١) الشوقيات جـ ٤ ص ١٥٠

الصياد والعصفورة

حكاية الصياد والعصفورة صارت لبعض الزاهدين صورة

ما هزءوا فيها بمستحق ولا أرادوا أوليــاء الحق

ما كل أهل الزهد أهل الله كم لاعب فى الزاهدين لاه

جعلتها شعراً لتلفت الفطن والشعر للحكمة مذ كان وطن

وخير ما ينظم للأديب ما لقنته ألسن التجريب

• • • •

ألقى غلام شركا يصطاد وكل من فوق الثرى صياد

فانحدرت عصفورة من الشجر لم ينهها النهى ولا الحزم زجر

قالت : سلام أيها الغلام قال : على العصفورة السلام

قالت : صبى منحنى القناة قال : حنتها كثرة الصلاة

قالت : أراك بادى العظام قال : برتها كثرة الصيام

قالت : فما يكون هذا الصوف ؟ قال : لباس الزاهد الموصوف

سلى إذا جهلت عارفيه فابن عبيد والفضيل فيه

قالت : فما هذى العصا الطويلة ؟ قال : لهاتيك العصا سليله

أهش فى المرعى بها وأتكى ولا أرد الناس عن تبرك

قالت : أرى فوق التراب حباً مما اشتهى الطير وما أحبا

قال : تشبهت بأهل الخير وقلت أقرى بائسات الطير

فإن هدى الله إليـه جائعاً لم يك قربانى القليل ضائعا

قالت : فجد لى يا أخا التنسك قال : التقطيه بارك الله لك

فصليت فى الفخ نار القارى ومصرع العصفور فى المنقار

وهكذا تقول الأغرار هذالة المسارف بالأسرار
إياك أن تغتر بالزهاد كم تحت ثوب الزهد من صياد [1]

هذه نماذج من الموضوعات التي طرقها شوقي في خرافاته : موضوعات استقاها من تجاربه الشخصية ، وموضوعات استقاها من خرافات لافونتين ، وأخرى استقاها من مصادر عربية قديمة . موضوعات كثيرة التفرع ، متعددة المصادر ، شأن الموضوعات التي تناولها لافونتين في خرافاته .

وتتميز الخرافة عند شوقي إلى جانب تنوع موضوعاتها ، بكثير من السمات الفنيــة في صياغته لتلك الموضوعات . وأول ما نلاحظه من تلك السمات ، روح الفكاهة التي أضفاها على الخرافة ، والتي تعكس جانباً أصيلا في شخصيته . فقد كانت لشوقي قصائد في إخوانه تفيض بأبدع وأرق أنواع الفكاهة[2] كما كانت قصائده الجدية لا تخلو من بيت أو أبيات فكاهية ، ويعتبر عباس محمود العقاد هذه الأشعار الفكاهية (الباب الوحيد الذي ظهر فيه شوقي بملامحه الشخصية ، لأنه أرسل نفسه فيه على سجيته ، وانطلق من حكم المظهر والصنعة والقوالب العرفية التي تنطوي فيها ملامح الشخصية وراء المراسم والتقاليد) [3] . ووجدت روح الفكاهة عند شوقي مجالا ومنطلقاً في الخرافات التي نظمها - كما قال - لأحداث المصريين الذين كان يلذ له أن يمتعهم ويدخل البهجة والسرور إلى قلوبهم إلى جانب الرغبة في تثقيفهم .

---

(١) الشوقيات : جـ ٤ ص ١٢٥

(٢) الشوقيات : جـ ٤ باب « محجوبيات »

(٣) انظر : « روح الفكاهة عند شوقي » مقال للعقاد في مجلة الهلال . أول نوفمبر سنة ١٩٦٨ ص ٥٢

وتتجلى روح الفكاهة فى الخرافات التى رويت على ألسنة حيوانات سفينة نوح ، وكانت تلك الحيوانات — كما تخيلها شوقى — قد تحابت وتعاطفت وتصافت نفوسها وقت الفيضان ، فلما رست السفينة إلى بر الأمان ، رجع كل حيوان إلى خلقه وعاداته وتنكر لإخوانه ، ومن تلك الخرافات (خرافة الليث والذئب فى السفينة) .

يقال إن الليث فى ذى الشدة	رأى من الذئب صفا المودة
فقال يامن صان لى محلى	فى حالتى ولايتى وعزلى
إن عدت للأرض بإذن الله	وعاد لى فيها قديم الجاه
أعطيك عجلين وألف شاة	ثم تكون والى الولاة
وصاحب اللواء فى الذئاب	وقاهر الرعاة والكلاب
حتى إذا ما تمت الكرامة	ووطىء الأرض على السلامة
سعى إليه الذئب بعد شهر	وهو مطاع النهى ماضى الأمر
فقال : يامن لا تداس أرضه	ومن له طول الفلا وعرضه
قد نلت ما نلت من التكريم	وذا أوان الموعد الكريم !
قال : تجرأت وساء زعمكا	فمن تكون يافتى وما اسمكا ؟
أجابه : إن كان ظنى صادقا ؟	فاننى والى الولاة سابقا (١)

وقد يحكى شوقى حكاية قصيرة لمجرد إدخال البهجة على نفوس الأطفال بما فى حكايته من فكاهة يقتصر عليها دون أى هدف أو مغزى أخلاقى ، كما نجد فى حكاية (الحمار فى السفينة) .

---

(١) الشوقيات : ج ٤ ص ١٦٤

سقط الحمار من السفينة في الدجى فبكى الرفاق لفقده وترحموا
حتى إذا طلع النهار أتت به نحو السفينة موجة تتقـدم
قالت خـذوه كما أتاني سالما لم أبتلعه لأنه لا يهضم (١)

ولقد صاغ شوقي هذه الخرافات صياغة تختلف عن صياغة شعره التقليدي لا من حيث الأصالة والشاعرية والمقدرة الموسيقية، بل من حيث السهولة والبساطة في الصياغة والتعبير .

فقد وصفها في أوزان قصيرة خفيفة تتناسب وهذا اللون من القصص وإن كان قد أكثر من استعمال الرجز ، كما نوع قوافيها ، فكان يستخدم أحياناً قافية متحدة في الخرافة ، وفي أحيان أخرى يستخدم قافية مزدوجة ،كما كانت الخرافة عنده تختلف طولا وقصراً حسب ما يتضمنه موضوعها من أفكار .

أما اللغة التي كتبت بها خرافاته فكانت العربية الفصيحة السهلة ، ولعلنا نلاحظ الفرق الهائل بين لغة شوقي في خرافاته ولغة محمد عثمان جلال ، فعلى الرغم من بساطة اللغة التي استخدمها شوقي في كتابة خرافاته وسلاسة تعبيره وسهولته لم ينحرف إلى العامية ولا إلى ألفاظ وتعبيرات مبتذلة كما فعل محمد عثمان جلال ، ولعل ذلك كان من بين الأهداف التي أرادها شوقي لتثقيف الأطفال عن طريق الخرافة ، وهو تقويم ألسنتهم وتعويدهم على النطق بفصيح الكلمات بدون مشقة أو جهد .

ولم يقتصر افتنان شوقي في خرافاته على طريقة تناوله للموضوع وصياغته بل إننا نراه يفتن أيضاً في إيراد الحكمة التي هي روح الخرافة كما قال لافونتين

---

(١) الشوقيات : ج ٤ ص ١٦٧

لم يجعل موضع الحكمة فى نهاية الخرافة دائما ، شأن كتاب الخرافة فى أدبنا العربى ، وإنما كان يوردها أحيانا فى أول الخرافة كما كان يفعل لافونتين .

مثل قوله فى أول خرافة (الأسد والضفدع)

انفع بما أعطيت من قدرة واشفع لذى الذنب لدى المجمع
إذ كيف تسمو للعلا يافتى إن أنت لم تنفع ولم تشفع (١)

وقوله فى أول خرافة (النملة الزاهدة)

سعى الفتى فى عيشه عباده وقائد يهديه للسعاده
لأن بالسعى يقوم الكون والله للساعين نعم العون (٢)

وحكمة الخرافة عند شوقى سواء كانت فى أولها أو آخرها ، هى حكمة بليغة عالية ، واضحة المرمى ، سهلة الإدراك ، لا تقل فى مستواها عن الأبيات الحكمية التى اشتهر بها شوقى فى سائر شعره .

كقوله فى نهاية خرافة (النملة والمقطم)

صاح لا تخش عظيما فالذى فى الغيب أعظم (٣)

وقوله فى نهاية خرافة (سليمان والهدهد)

إن للظالم صدراً يشتكى من غير علة (٤)

وقوله فى نهاية خرافة (الجمل والثعلب)

ليس بحمل ما يمل الظهر ما الحمل إلا ما يعانى الصدر (٥)

---

(١) الشوقيات : ج ٤ ص ١٧٠
(٢) « ج ٤ ص ١٧١ (٣) نفس المصدر ص ١٤٨
(٤) « ج ٤ ص ١٥٣ (٥) « ١٥٣

وقوله فى نهاية خرافة « الظبى والعقد والخنزير »

لا عجب إن السنين موقظه ... حفظت تمراً لو حفظت موعظه[1]

وقد تتطلب الحكمة مزيداً من الإيضاح فيوفيها حقها فى عدة أبيات . كقوله فى نهاية خرافة « الخفاش ومليكة الفراش »

رب صديق عبد	أبيض وجه الود
يفديك كالرئيس	بالنفس والنفيس
وصاحب كالنور	فى الحسن والظهور
معتكر الفؤاد	مضيع الوداد
حباله أشراك	وقربه هلاك (١)

من كل ما تقدم يتبين لنا أن الخرافات عند شوقى جزء متمم لشعره، يكشف عن شاعريته الأصيلة ، وسماته الفنية ، وشخصيته الإنسانية ، وأن شوقى إن كان قد قلد لافونتين فى نظم الخرافات، فإن هذا التقليد كان نوعاً من التقليد الابتداعى إن جاز لنا مثل هذا التعبير .

---

(١) الشوقيات جـ ٤ ص ١٣٦ (٢) نفس المصدر ص ١٤٦

آداب العـــرب

لابراهيم العرب

وممن ساروا على نهج لافونتين فى نظم الحكم على ألسن الحيوان إبراهيم العرب الذى لم نعثر على ترجمة لحياته ، وكل ما نعرفه عنه أنه نظم تسعا وتسعين خرافة أسماها « عظات » وجمعها فى كتاب بعنوان « آداب العرب » أصدره سنة ١٩١١ م وقررت نظارة المعارف وقتذاك – كما جاء فى صدر الكتاب – طبعه على نفقتها ، وتدريسه فى المدارس الابتدائية وفى مدارس المعلمات السنية ، ومدارس معلمى الكتاتيب .

ولعل ابراهيم العرب قد استجاب لما دعا إليه شوقى قبله بسنوات (١٨٩٨م) من إيجاد أدب للاطفال تكون وسيلته الخرافة . والواقع أن الذين استجابوا إلى دعوة شوقى كثيرون ، نذكر على سبيل المثـــال اسماعيل صبرى [1] ، ومصطفى صادق الرافعى ، وعبد اللطيف النشار ، ومحمـــد الاسمر ، ولكنهم لم يخصصوا للخرافة كتباً مستقلة كما فعل ابراهيم العرب ، بل ورد إلينا ما ألفوه من خرافات فى دواوينهم وفى الكتب المدرسية للرحلة المتوسطة وفى الصحف والمجلات .

وقد بين إبراهيم العرب فى مقدمة كتابه « آداب العرب » ما أراد أن يحققه من ورائه ، والطريقة التى اتبعها فى نظمه ، والمصادر التى استقاه منها فقال : « أما بعد ، فهذا كتاب خدمت به نابتة الوطن المحبوب ، وأجريت فيه الامثال والحكم

---

(١) أنظر ديوان اسماعيل صبرى – خرافة «الثعلب والغراب» ترجمة لخرافة لافونتين بالعنوان نفسه – ص ١٣٧ – ١٣٩

المأثورة ، ليأخذوا منها ما يربى نفوسهم، ويقوم أخلاقهم ، ويطبعها على أصوب آراء المتقدمين . وقد التزمت أن أجعل مواعظ كتابى أقاصيص قريبة التنـاول ، واضحة المعنى، سهلة النظم، يقرؤونها بلا ملل وينتهون منها إلى تلك الكلم الجوامع كأنها نهايات طبيعية لتلك المواضع العذبة المشرب. على أننى جاريت السابقين من كتاب العرب وأدباء الغرب، فجعلت حكم تلك العظات دائرة على ألسنة الحيوانات المعروفة ليـكون الإخبار بذلك أفكه ، والمواعظ أبلغ فى ضرب الأمثال وسرد الحكم (١) .

وأكد هذه الرسـالة الأخلاقيـة التى استهدفها من نظم الخرافات فى فاتحة الكتاب التى كتبها نظماً فقال :

وبعد فهذى حكمة ومواعظ	لتهذيب أخلاق وإصلاح أحوال
بهن معان كالعيون سواحر	وألفاظ در كل بحر بها حالى
فلو وهب الرحمن للدهر مسمعا	لمال إلى الإصغاء منشرح البـال
عن الطير فى جو السماء أخذتها	وفى القفر عن ظبى وذئب ورئبال
عروس تجلت للأحبة مهرها	رضاهم وما مهر الأحبة بالغالى
لخدمة أوطانى وإعلاء شأنها	صرفت نفيس النظم والعمر والمال
وما أرتجى حسن الثناء من امرىء	فياليتنى أنجو من القيل والقال

وإذا كنا نجهل سيرة حياة ابراهيم العرب ، ولا ندرى من أمره شيئاً وهل كان يعرف الفرنسية أم لا يعرفها ، فإن حديثه فى المقدمة يبين أنه جارى الغرب ، وما نظن إلا أنه يعنى بذلك لافونتين بصفة خاصة ، لأن لافونتين ـ كما ذكرنا

(١) مقدمة آداب العرب ص ٢

من قبل — كان معروفا قبل ابراهيم العرب فى أوساط الأدب العربى كشاعر المنظومات الخرافية فى الأدب العربى .

وإذا تأملنا فى « عظات » ابراهيم العرب ، وجدنا فى بعضها ما يدل دلالة واضحة على أن خرافات لافونتين كانت بالفعل مصدراً من مصادر ابراهيم العرب ، وأوضح مثال على ذلك العظة التى وضعها بعنوان « الحارث وزوجته والجحش » والتى يقول فيها :

ركب جحشا حارث على سفر ... وتبعته زوجه على الأثر
فقال قوم قد أعز نفسه ... بغير حق وأذل عرسه
فقام كى يرتاح فى زمانه ... يدارى من يحذر من لسانه
فانحط عن مركبه ترجلا ... وامتطت الزوجة منه بدلا
فقال بعض الناس هل تفضل ... على الرجال إمرأة لا تعقل
فقــال إنى مردف لزوجتى ... حتى يكف النــاس عن مذمتى
فامتطيا الجحش إلى أن ضعفا ... وكل من حملها فوقفــا
فقـال آخرون كم فى النـاس ... من خشن فــظ الفؤاد قاس
فنزلا عنه بلا توانى ... لينعما شقشقة اللسان
فقال شاهد لهذى الحال ... قد نكب الزوجان بالخبال
فقـال هذا الحـارث المسكين ... كل امرىء برأيه مفتون
والشكر فى الناس قليل جدا ... إن لم تصــابرهم بقيت فردا
جهد البلاء صحبة الأضداد ... فإنهــا كى على الفؤاد
إنى فعلت كل ما فى وسعى ... لأرضى النــاس فخاب صنعى
مهما يك الإنســان رب حق ... فغير مرض لجميع الخلق [١]

(١) آداب العرب : ص ٨١ العظة الرابعة والسبعون

فهذه العظة مصدرها خرافة للافونتين بعنوان « الطحان وابنه والحمار » (١).
نظمها من أجل صديقه السيد موكروا (Mr. Du Maucrois) وأهداها إليه ،
لأن هذا الصديق كان فى أول حياته كثير التردد فى اختيار العمل الذى يتفرغ له
ويرضى به جميع الناس، فنظم لافونتين هذه الخرافة ليبين له من خلالها أن إرضاء
الناس جميعاً غاية لا تدرك ، والخرافة طويلة تستغرق ثلاث صفحات وتقع فى
أربعة وثمانين بيتاً . وتدور حول طحان وابنه ذهبا يوما إلى السوق ليبيعا حماراً،
ولرغبتهما فى بيعه بثمن غال ، حرصا على أن يجنباه أية مشقة فى الطريق تفقده
نشاطه وحيويته ، فشدا قوائمه وعلقاه على أكتافهما كالثريا ، ولكن منظرهما وهما
يحملان الحمار بهذه الطريقة أثار قهقهة أول شخص رآهما وتعليقاته الساخرة، ففطن
الطحان لسبب السخرية وأنزل الحمار إلى الأرض، فأخذ الحمار ـ الذى لذته رحلته
الأولى ـ يحتج بلجته الجافة ، ولكن الطحان لم يعبأ بهذا الاحتجاج ، بل أركب
إبنه على ظهر الحمار وسار هو وراءه فمر عليهما جماعة من التجار كانوا على سفر،
لم ترقهم رؤية الطحان الرجل المسن يتكبد عناء السير ، وإبنه الفتى يجلس على ظهر
الحمار ، فصاحوا بالفتى يوسعونه لوماً وتوبيخاً ، فنزل الفتى وركب والده محله ،
فأقبلت عليهما ثلاث فتيات استنكرن قسوة الطحان الرجل العجوز الذى يجلس
كالعجل فوق ظهر الحمار ويترك فتاه وهو أحق منه بركوب الحمار ، يجر قدميه
سيرا وراءه ، وبعد حوار عنيف بين الطحان والفتيات الثلاث بلغ حد السب
والشتم ، أركب الطحان إبنه وراءه على ظهر الحمار، ولم يكد يبتعد خطوات حتى
صاح بهما رجل استثارته الشفقة فى هذه المرة على الحمار الذى كاد يتقصم من حمل

(1) La Fontaine : Fables Livre III. Fable 1 Page 1204
Le meunier, son fils et l'âne

طودبن فقال الطحان يائساً (جن من زعم أنه يرضى أباه ويرضى كل إنسان) ومع ذلك واصل التجربة ، فنزل هو وابنه عن ظهر الحمار وتركاه يسير أمامهما وهما من خلفه يسيران على الأقدام، فصاح بهما أحد المارة مستغرباً (أمن البدع فى هذه الأيام أن يمضى الحمار فى دل وفى زهو ويلقى صاحبه العناء مرتجلا ؟) فأجابه الطحان فى ألم (حقيقة إنى حمار ، ولكن منذ الآن إن أمدح وإن ألم ، أو قيـــل أو لم يقل عنى من التهم ، فلن أبالى بأقوال إنسان ، وسأعمل ما يمليه على عقلى) .

ويبدو من مقارنة ما فعله ابراهيم العرب بخرافة لافونتين أنه حاول أن يضعها فى إطار عربى مع شىء من التحوير والاختصـــار الشـــديد الذى أفقد الخرافة براعة ســياق المواقف ، ودقة الوصف ، ومرارة السخرية التى تتمثل فى أقوال المشاهدين كما وردت فى خرافة لافونتين .

وتدور موضوعات الخرافة عند ابراهيم العرب حول الفضـــائل والرذائل الإنسانية ، وهى مدار طبيعى لكل من صاغ حكماً ومواعظ على ألسن الحيوان ، أو على غير ألسن الحيوان . وأهم تلك الفضائل : الصدق . التعاون . القناعة . العدل . العفو . أما الرذائل فأهمها : البخل . الغرور . الحقد . الطمع . سوء الظن . الجبن .

فمن خرافات ابراهيم العرب التى يصل منها إلى حكمة تدل على أثر الـكلمة فى نجاة صاحبها خرافة « الفتاة والنملة »

فتاة حسن ذات دل يبهر	كانت على كل الحسان تفخر
أكبر شىء شاغل نهاها	أن تخدم الحسن الذى حلاها
تلبس فى المساء ما لم تلبس	وقت الصباح من ثياب السندس

إذا مشت مشية اختيال لسكرها من خمرة الدلال
تمضى وتنثنى إلى المرآة فى الساعة المرة والمرات
وبينما تلك الفتاة تنظر فيها وقد رقت وراق المنظر
إذا بنحلة تدانت منها وقد تلاهت الفتاة عنها
حطت على مبسمها النضير واسعتها لسعة السعير
فأعولت واستصرخت من الألم فجاءها بسرعة كل الخدم
فأخذوا النحلة للعقاب بلا سؤال وبلا جواب
فقالت النحلة يا أصحاب ليس لمثلى ينبغى العقاب
رأيت فى مبسمها احمرارا ظننته فى ثغرها أزهارا
وليس بين ريقها وشهدى فرق فكيف لا أراه وردى
فأطرب الجواب تلك العذرا وعندها قالت قبلت العذرا
سامحتها فى لسعها الخفيف كرامة لقولها اللطيف
فانظر إلى حلاوة اللسان والسحر فى المنطق والبيان
فرب لفظة أفادت نعمة ورب لفظة أتت بنقمة (١)

ومن الخرافات التى يظهر فيها إبراهيم العرب ضيقه بما طبع عليه بعض الناس من شر ، وكأنه يحذر منهم ويقطع الأمل فى رجاء الخير منهم ، خرافة (الكلب والعلف والحمار)

قد نام فوق علف الحمار كلب منابذ من الاشرار
وكلما رام الحمار أكله قام له الكلب فعض رجله
حتى غدا من جوعه هزيلا يوسعه صاحبه تنكيلا

---

(١) آداب العرب : العظة السابعة ص ١٠

ماذا جنى الحمار فى دنياه	فسلط الكلب على أذاه
لا زاد هـــذا نافع لهذا	إيذاؤه وظلمـــه لماذا
قد جبلت طباع بعض الخلق	على أذى بعض بغير حق
شر الورى من ليس يرجى خيره	يوما ويرجى شره وضيره (١)

ونلاحظ فى معظم خرافات إبراهـيم العرب أنه يسوق عظاته من واقع تجارب حياة قائمة ، يظهر فيها ضيقه بما يراه من نقائص ورذائل ولعله كان يأخذ جانب الحذر فى حياته من كل ما من شأنه أن يطغى على الإنسان أو يسبب له أذى وظلما ، ولشدة إحساسه بهذه المعانى حرص على أن يحذر الناشئة منها ، ونستطيع أن نتمثل هذه الناحية من قوله :

وأنت فى الدنيا كثير الجـــد	والجد فى زماننا لايجدى (٢)
وفى قوله : كم من نصوح تحامى الناس عشرته	وذى خداع له بالغش تقريب (٣)
وفى قوله : رب من ترجو به دفع الأذى	عنك يأتيك الأذى من قبله (٤)
وفى قوله : اصرف النفس عن كثير من النا	س فما كل ماترى بصديق (٥)

وربما كانت هذه المعانى نتيجة طبيعية لسطوة الاستعمار البريطانى فى مصر فى عصر إبراهيم العرب ، وتسلطه على مقدرات الدولة ، ووجـود من يمالىء الاستعمار ويمشى فى ركابه ، فينال ما لا يناله أبنـــاء الوطن المخلصون ، بل إن إحساس المصريين وقتذاك بسطوة الأتراك أيضا وتشامخهم على العرب ، ينعكس لنا فى عظة لإبراهيم العرب بعنوان ـ المعجب بآبائه :

---

(١) آداب العرب : العظة التسعون ص ٩٦

(٢) اداب العرب : ص ١٧ (٣) ص ٣٨ (٤) ص ١٥ (٥) ص ٢٥

فتى من الأتراك كان له حسب … وكان يجر الذيل فخرا على العرب
ويعدد بين الناس فضل جدوده … ويذكر تاريخ المناصب والرتب
ويحسب أن المجد فى بيته له … تراث وأن الحب يورث بالنسب
فمازال مختالا يبدد إرثه … فلا مجد معتاض ولا مال مكتسب
إلى أن مضى عصر الشباب وعزه … ولم ينتفع فيه بعلم ولا أدب
وأصبح مخفوض الجناح كسيره … وكم جاهل مجد الجدود به ذهب
إذا الغصن لم يثمر وإن كان شعبة … من المثمرات اعتده الناس فى الحطب[1]

ونرى فى بعض عظات إبراهيم العرب آراء واضحة فى الحياة السياسية والاجتماعية ، تخلو من روح الحكاية ، مثل العظة التى وضعها تحت عنوان « الحرية » ويقول فيها :

والقصد من حرية البلاد … توفر الراحة للعباد
يبيت فى الدار أمين الغبن … رب الغنى فى راحة وأمن
ويأخذ الضعيف كل حق … ويعتق الغنى عبد الرق
لاترهب السفين قطع البحر … ولايخاف الناس سير البر
وينبغ الكتاب فى التحرير … بنشرهم مذاهب الضمير
وتترك الدعوة للمذاهب … لكل غاد دينه وذاهب
وتفتح الأبواب للمدارس … فى وجه موسر ووجه بائس
وتدخل الأرزاق للتجار … من سائر الأجناس والأقطار
هذى هى الحرية الصحيحه … وهذه نعمتها الرجيحه
تمتع الإنسان فى الحياة … بحقه من أعظم الهبات[2]

(١) المرجع نفسه : العظة الرابعة والأربعون ص ٥٣
(٢) آداب العرب : العظة السابعة والتسعون ص ١٠٣

هذه هى الموضوعات التى طرقها إبراهيم العرب فى خرافاته أو عظاته كما سماها ، وقد كتبها بلغة عربية فصيحة ميسرة تجنب فيها العامية ، مثلة فى ذلك مثل شوقى ، إلا أنه يفتقد مرونة شوقى اللغوية ، وموسيقاه الشعرية ، وقدرته على انتقاء الكلمات والجمل المعبرة عن جو كل خرافة ، المصورة لنفسيات أبطالها وخلقهم .

واختتم كل خرافة بالحكمة التى تناسبها ، كان يستوحيها من تجاربه حيناً ، أو يستعيرها من أقـــوال شعراء العربية السابقين حيناً آخر كما فعـــل محمد عثمان جلال .

فقد اختتم مثلا خرافة « الديكان والنسر » بقـــول المتنبى :

وإذا ماخلا الجبان بأرض　　　طلب الطعن وحده والنزالا (١)

واختتم خرافة « الفلاح والملك » بقول الحطيئة :

من يفعل الخير لايعدم جوازيه　　　لا يذهب العرف بين الله والناس (٢)

واختتم خرافة « الهر والمرآة » بقول ابراهيم بن هرمة :

إذا لم تستطع شيئا فدعه　　　وجاوزه إلى ما تستطيع (٣)

واختتم خرافة « الرجل التائه فى الصحراء » بقول المتنبى

ما كل ما يتمنى المرء يدركه　　　تأتى الرياح بما لاتشتهى السفن (٤)

واختتم خرافة « لاعب الميسر » بقول أبى العتاهية :

إن الشباب والفراغ والجده　　　مفسدة للمرء أى مفسدة (٥)

---

(١) المرجع السابق ص٩

(٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) آداب العرب : ص ٨٠ ، ص ٥٥ ص ٥٧ ، ص ٦٤

وقد اتبع إبراهيم العرب شوقيا ومحمد عثمان جلال فى طريقة نظم خرافاته ، فاستخدم أوزانا مختلفة ، وقوافى متغيرة على نظام المزدوج .

وإذا كان إبراهيم العرب قد اتبع محمد عثمان جلال وشوقيا فى بعض أساليبهما فى صياغة الخرافة ، فإنه ابتعد عنهما تماما من ناحية افتقاره إلى روح الفكاهة التى تميز بها كل منهما ، والتى كانت سمة من أهم سمات لافونتين . ويبدو أن إبراهيم العرب كان يلتزم الكتابة الوعظية للناشئة ولذلك أخذ نفسه فى صياغة خرافاته .

أمثال لافونتين

الأب نقولا أبو هنا المخلصى

لم تكن خرافات لافونتين مثار اهتمام الشعراء فى مصر فحسب ، بل كانت أيضا مثار اهتمام الشعراء فى لبنان ، ولكن بصورة تختلف إلى حد كبير عما وجدناه فى آثار الشعراء المصريين من حيث نقل خرافات لافونتين إلى اللغة العربية ، فقد رأينا مثلا أن محمد عثمان جلال كان ناقلا لخرافات لافونتين مع شىء من التصرف لمضاهاة الحياة العربية والمصرية بصفة خاصة ، كذلك رأينا شوقى قد استوحى خرافات لافونتين دون أن يقوم بالنقل أو الترجمة ، وقد فعل الشىء نفسه ابراهيم العرب .

أما الشاعر الأب نقولا أبو هنا اللبنانى أحد أدباء دير المخلص بصيدا بلبنان ـ وهو مدار حديثنا فى هذا الفصل ـ فقد اتخذ طريقا مخالفا للشعراء المصريين ، إذ أخذ على عاتقه ترجمة خرافات لافونتين ترجمة تكاد تكون حرفية والتزم فى هذه الترجمة بكل ما يلتزم به المترجم عادة ، من اتباع ترتيب الخرافات عند لافونتين ، والتقيد بالنص ، ومحاولة مضاهاة كل ما فيه من حوار أو وصف أو عظة .

ولقد هيأت الظروف للأب نيقولا الاضطلاع بهذا العمل ، فكانت لبنان وخاصة النصارى فيها على صلة وثيقة بالفرنسية بفضل الإرساليات التبشيرية ، ولصلة النصارى الدائمة بأوربا المسيحية التى كانوا يستمدون منها القوة ضد الدولة العثمانية التى كانت تسيطر على البلاد العربية فى ذلك الوقت ، ثم طغت الفرنسية

على أهالى لبنان بعد الحرب العالمية الأولى ، فحينما خضعت بلادهم لحكم فرنسا ، فرضت الفرنسية فى جميع المدارس تعلم بها جميع المواد ماعدا العربية ، وظل أثر الثقافة الفرنسية واضحا فى نتاج أدباء لبنان حتى بعد أن حصلت لبنان على استقلالها سنة ١٩٤٥ م .

وعلى الرغم من المقام الذى احتلته الفرنسيه فى لبنان ، فقد بقى للعربية أنصارها لامن المسلمين فحسب ، بل من المسيحيين أيضا الذين يحفل تاريخنا الأدبى الحديث بأسماء كثير منهم ، والأب نقولا أبو هنا كان من المتضلعين فى اللغتين العربية والفرنسية ، فهو فى العربية شاعر ينظم الشعر فى مختلف المناسبات ، وكانت نشرت له الصحف كثيرا من المقالات ، كما أن شرحه وتعليقه على ما ترجمه من خرافات لافونتين يدلنا على غزارة علمه باللغة العربية وآدابها . أما فى الفرنسية فحسبنا من دليل على تمكنه منها وسعة اطلاعه على آدابها ، تعليقاته وشروحه على خرافات لافونتين التى أشبعها درسا هى وشروحها التى وضعت فى الكتب الفرنسية قبل أن يقدم على ترجمتها (١) .

وإلى جانب هذه العوامل كانت هناك أعمال أدبية شعرية قد تم نقلها ـ فى عصر الأب نقولا ـ إلى اللغة العربية ، لامن الفرنسية فحسب بل من لغات أجنبية أخرى .

مثل « خرافات لافونتين » التى قام بنقلها من الفرنسية محمد عثمان جلال (١٨٥٧ م) وهى وإن لم تكن ترجمة بالمعنى الدقيق للترجمة ، فإنها أول نقل لأثر شعرى أجنبى إلى اللغة العربية ، يعد من الآثار الشعرية العالمية .

---

(١) لم نجد ترجمة للأب نقولا أبوهنا . وهذه المعلومات التى أوردناها عنه ، قد استخلصناها من التقاريظ التى وردت فى نهاية كتابه « أمثال لافونتين »

ومثل « إلياذة هوميروس » التي نقلها من اليونانية سليمان البستاني في نحو أحد عشر ألف بيت من الشعر العربي الفصيح ، ونشرها كاملة بشروطها ومقدمتها ومعاجمها وفهارسها سنة ١٩٠٤ م .

ومثل « رباعيات الخيام » التي نقلها عن الترجمة الانجليزية إلى الشعر العربي وديع البستاني سنة ١٩١٢ م . فهذه الآثار قد ذللت بلا شك اللغــة العربية لتقبل الآثار الشعرية الأجنبية ولعل الأب نقولا قد أفاد منها .

ترجم الأب نقولا أبوهنا خرافات لافونتين ترجمة وافية إلى اللغـة العربية وكان فيما يبدو يعتزم ترجمتها جميعها ، وعددها ٢٣٩ خرافة ، إلا أنه لم يترجم منها غير ١١٨ خرافة ، أي مايقرب من نصف خرافات لافونتين .

وقد التزم في ترجمتها الأمانة والدقة . ترجمها خرافة خرافة حسب ترتيب الأصل وتبويبه في شعر عربي رصين مضبوط بالشكل الكامل ، وحرص في الترجمة على المحافظة على النص الفرنسي جهد المستطاع دون أن يتصرف فيه إلا تصرفا طفيفا اقتضاه مراعاة النسج العربي والوزن الشعري ، ثم علق على الترجمة بشـــروح وتفاسير ضافية لغوية وتاريخية وميثولوجية ، تناولت شرح المفردات الغريبة التي وردت في الترجمة العربية ، والأعلام الذين وردت أسماؤهم في خرافات لافونتين ، وحكم وأمثال العرب التي تتفق وحكم لافونتين أو تعارضها .

وقد أخرج هذه الترجمة بشـــروحها وتفاسيرها في ستة كتب متتاليـة ثم جمعها في كتاب واحد بعنوان « أمثـال لافونتين » . أصدره سنة ١٩٣٤ في طبعة دقيقة متقنة ، مصدرة بصورة لافونتين ، مزينة في رأس كل خرافة بصورة تكشف عن حالة شخصيات أبطالها وتدل على مضمونها .

وقدم الكتاب إلى رؤساء المدارس العربية فى جميع الأقطار ، وإلى طلاب الأدب العربى ، وإلى أنصار الضاد ، فاستقبل الكتاب استقبالا طيبا ، وقرظته الصحف المعاصرة عربية وأجنبية ، كما تقرر تدريسه فى مدارس لبنان .

وواضح أن الهدف الذى رمى إليه الأب نقولا من وراء ترجمته لخرافات لافونتين ، هدف تعليمى تهذيبى ، وهو نفس ما دعا إليه محمد عثمان جلال وأحمد شوقى وإبراهيم العرب ، لأن خرافات لافونتين فى حد ذاتها وسيلة تعليمية مشوقة لإطلاع الناشئة على ما نحب أن نلقنه لهم من فضائل ، وما ينبغى أن يتجنبوه من رذائل .

وإذا كنا قد ذكرنا أن ترجمة الأب نقولا قد بلغت حدا كبيرا من الدقة والأمانه ، فنحن لانتجاوز الحقيقة فى ذلك ، وسنضرب أمثلة للبرهنة على ماتقول :

ففى خرافة « جرذ المدينة وجرذ الحقول » يقول لافونتين :

Le rat de ville et le rat des champs.

Autrefois le rat de ville
Invita le rat oks champs,
D'une yaçon fort eivile,
A des reliefs d'ortolans

Sur un tapis de Turquie
Le couvert se trouva mis.
Je laisse à penser la vie
Que firent ces deux amis.

Le régal fut fort honnête !

Rien ne manquait au festin;

Mais quelqu'un troubla la fête,

Pendant qu'ils étaient eu train.

A la porte de la salle

Ils entendirent du bruit;

Le rat de ville détale;

son camarade le suit.

Le bruit cesse, onse retire .

Rats en campagne aussitôt;

Et le eitadin de dire :

« Achevons tout notre rôt.

— l'est assez, dit le rustique ;

Demain vous viendrez chez mor.

le n'est pas que je me pique

De tous vos festins de roto;

Mais rien ne vient m'interrompre;

je mange tout à loisir.

Adieu doue : fi du plaisir

(1) Que la crainte peut corrompre ! »

---

(١) La Fontaine : Fables Fable IX du Livre I. p. 85 Edition anmotée par L. clément.

وقد ترجم الأديب نقولا هذه الخرافة فقال :

جرذ المدينة قد دعا ⠀⠀ جرذ الحقول إلى وليمه
كانت فضالة لحم فرسى تلـ ⠀⠀ ـذ وذات قيمه
وتأنق الداعى فلباه الصد ⠀⠀ يق أخا عزيمه

كانت معدات الوليـ ⠀⠀ ـمة فوق طنفسة وسيمه
تركية منسوجة ⠀⠀ لقصور سادات فخيمه
فتصوروا ما يفعل الخلان ⠀⠀ فى تلك الغنيمه
هى أدبة فى حسنها ⠀⠀ من كل منقصة سليمة
قد عيدا فى قربها ⠀⠀ عيدا مسرته مقيمه
لو لم يشوش سعدها ⠀⠀ نحس بطلعته الذميمه
سمعا بقرب الباب وقع خطـ ⠀⠀ ـى فلاذا بالهزيمه
فقفز المضيف لمخبأ ⠀⠀ والضيف قد جارى حميمه
لكن إذا انقطع الصدى ⠀⠀ رجعا بهات عظيمة
وابن المدينة قال للبرى ⠀⠀ ـه لاتخشى الهضيمه
لاتبقين ولاتذر ⠀⠀ قبل العوادى المستضيمة
فأجابه جرذ الحقول ⠀⠀ كفى ونعم الجود شيمه
أنا لست أشكو من مكارو ⠀⠀ ك الحديثة والقديمة
لكنما عندى الأمان وذا ⠀⠀ لك نعمتى الجسيمه
أكلى على هونى فلا ⠀⠀ خوف ولا نوب مليمة
سان الوداع ففى غد ⠀⠀ جدلى بزورتك الكريمة
ثم انبرى ينحو البرا ⠀⠀ ى حيث عيشته قويمه

ويقول : « ياتفسألميز   في تقسف الرهي تمضيه » (١)

وبمقارنة الترجمة العربية بالأصل الفرنسى نجد الأديب لقولا قد حافظ على مضمون الخرافة محافظة كاملة فلم يسقط منه شيئا ، ولكنه قدم وأخر بعض العبارات ليستقيم له الأسلوب العربى ، وقد بلغت دقة ترجمته أنه لم يغفل نوع الطير (Ortolans) الذى ذكره لافونتين فى خرافته ، بل بحث عنه حتى وجد اسمه العربى وهو « الفرى » ، كذلك حافظ على أسلوب لافونتين من حيث الحوار ، واستخدام الأساليب الخبرية والإنشائية . ولكننا بسبب التزامه بكل قيـــود الترجمة ، نحس بعض التعنت فى صياغته العربية ، وخاصة لأنه قد ألزم نفسه باستخدام القافية الموحدة ، وإن كنا لا نحس فى أسلوبه ركاكة بسبب الالتزام بالمعنى الأجنبى ، وقد نلتمس له العذر لاستخدامه بعض الألفاظ الغريبة لأكثر من سبب ، وسنشير إليها جميعا فيما بعد .

ولننتقل بعد ذلك إلى نص آخر لنرى القيمة الفنية لترجمة الأب لقولا لخرافات لافونتين ، فى الخرافة المسماه « البغل مفتزا بأصله » يقول لافونتين :

— Le mulet se vantant de sa généalogie

Le mulet d'un prélat se piquait de noblesse,
Et ne parlait incessamment
Que de sa mère la jnment,
Dont ilcontait mainte prouesse :
Elle avait fait ceci, puis avait été'là.
Son fils pretendait pour cèla
Qu'on le dùt mettre dans l'histoire.

---

(١) أمثال لافونتين : الكتاب الأول . الخرافة ٩ ص ٣٦

Il eût cru s'abaisser servant un médecin.
Etant devenu vieux, on le mit au moulin :
son père l'âne alors lui revint en mémoire.

Quand le malheur ne serait bon
Qu'à mettre un sot à la raison,
Toujours serait-ce à juste cause
Qu'on le dit bon à quelque chose.

وقد ترجم الأب نقولا هذه الخرافة فقال :

بغل لبعض الأمرا ينبله قد فخرا
فنطقه مد النفس بمجد أمه الفرس
معددا ما نالت في كل حرب جالت
من رائعات النصر وشائعات الذكر
أخبارها تستنسخ ومجدها يؤرخ
ولبدها البغل ولا غرو له مجد علا
يظن ذل النفس مدمه للنطس
فحين شاخ وسكن مطحنة تضنى البدن
عاد إلى تذكار والده الحمار

البؤس نقوت ولكن يرتضى إن رد أحمق جاهلا عن جهله
للناس أحيانا منافع جمة من سوء ما يلد الزمان لأهله (٢)

La Fontaine : Fables Edition annotée par L. Clément (١)
Fable VII — Livre VI p. 195.

(٢) أمثال لافونتين : الكتاب السادس . الخرافة ٧ ص ٣١

من هذه الترجمة يتضح لنا أن الأب نقولا قد التزم النص الفرنسى التزاماً كاملا كما رأينا فى الخرافة السابقة ، ولكنه هنا تحرر بعض الشىء فى استخدام القافية فكتب الخرافة فى المزدوج دون القافية المتحدة ، ولم يلتزم ببحر طويل كما رأينا فى الخرافة السابقة ، وكما نرى فى معظـــم خرافاته أيضا ، ولكنه اختار مجزوء الرجز فى هذه الخرافة ، وقد بلغ من مضاهاته للافونتين فى تغيير الاوزان أنه كتب الحكمة المستفادة من الخرافة فى نهايتها فى وزن مغاير كما فعل لافونتين ، إذ كتب البيتين الأخيرين فى الرجز التام ، وكأن لافونتين كان يريد بتغيير الوزن الموسيقى أن يثير الاهتمام بالمغزى الحكمى من وراء خرافته .

ولم يكتف الأب نقولا بمراعاة هذه اللفتة من لافونتين ، بل ذهب يعلق على المغزى الحكمى ويشرحه ليزيده إيضاحا . فقال فى الهامش فى بدء تعليقه على بطل الخرافة : « إن هذا البغل غير متأدب » بقول ابن الوردى :

لاتقل أصـــلى وفصلى أبدا	إنما أصل الفتى ما قد حصل
إنما الورد من الشوك وهل	ينبت النرجس إلا من بصل »

وينهى تعليقاته على الخرافة بشرح الحكمة ، يقول إن بؤس الحياة مكروه فى حد ذاته ، ولكن إذا كان وسيلة لرد الجاهل عن جهله وغروره فلا بأس به ، والناس كثيرا مايستفيدون من شقاء الحياة عبرة يرعوون بها عن جهالتهم ، ويصحون من سكرات حماقاتهم » .

ونلاحظ فى كل ما ترجمة الأب نقـــولا أبوهنا ، تعليقاته وشروحه لا على الألفاظ اللغوية العربية ، والمعانى التى تبـدو له مستغلقة فحسب ، بل على كل ما يذكره لافونتين ويكون بعيــــدا عن متناول القارىء العربى مما يدخل فى الميثولوجية اليونانية بصفة عامة . وقد ظهر تمكن الأب نقولا من دراسة هذه

الناحية حين انتقد لافونتين نفسه فى إيراد بعض الأساطير دون فهم لتاريخ أحداثها ، ودون توفيق فى صياغتها ، واستخراج حكمة بليغة منها .

فمن ذلك مثلا الخرافة التى أسماها لافونتين « La Discorde » (١) وترجمها الأب نقولا تحت عنوان « فتنـــة » (٢)

يعرفنا الأب نقولا بعد ترجمته لتلك الخرافة « بفتنة » ، فهى إلهة من إلهات الميثولوجية ، أحدثت شقاقا بين ثلاثة من الإلهات ربات الحسن والجمال ، ترتب عليه حرب استغرقت عشر سنين ، وهى حرب طروادة التى بنى عليها هو ميروس ملحمته المعروفة بالإلياذه . فكان جزاء « فتنة » أن نفيت من السماء ، ويقول لافونتين إن فتنة حين نفيت إلى الأرض اختارت لسكناها أوروبا المتمدنة دون أقسام الكرة الأرضية التى كان أهلها همجا هملا . ويعلق الأب نقولا على قول لافونتين فيقول :

« وهو قول لاصحـــة فيه لأن الرواية الميثيولوجية عن طرد فتنة من السماء سابقة بعصور بعيدة القدم لتمدن أوروبا ، وكانت أغلب أقسام أوروبا منذ قرون معدودة مسرحا واسعا للهمجية وكان أهلها أغلظ أهل الأرض رقابا . »

وهذه لفتة ذكية من الأب نقولا يدافع بها عن سكان الشرق ، وفيهم العرب الذين كانوا متقدمين فى ضروب الحضارة الإنسانية على أوروبا بعدة قرون .
ويستمر لافونتين فى بيان السبب الذى ألجأ فتنة إلى اتخاذ أوروبا سكنا لها

(١) La Fontaine - Fables. Livre VI. Fable XX.

(٢) أمثال لافونتين : الكتاب ٦ — الخرافة ٢٠ ص ٧٩ — ٨٤

دون سواها ، وهو أن الأقوام الآخرين الذين كانوا يعيشون فى همجية وفوضى بلا دين ولا سنن لم يكن عندهم سبب للنزاع والمخاصمة ، فلما جاءتهم فتنة لتقطن بينهم أغلقوا فى وجهها أبوابهم ولم يقبلوها .

ويقول الاب نقولا « وقد انتقد بعض شراح لافونتين الفرنسيون عليه هذا المعنى ، واتهموه بأنه فضل حالة الهمجية والفوضى والتحرر من الشرائع على حالة المدنية والنظام والسكون فى طريقة الشرع والقانون ، ودليلهم فى ذلك أن لافونتين حصر الشقاق والخصام فى أهل المدينة والشرع ، وبرء منها أهل الفوضى والهمجية . والذى أراه أن الشاعر ذاهب إلى غير ما أراد المنتقدون أن يأخذوه به من التهم ، فهو ينعى على المتمدنين ماهو شائع فيهم من خلق النزاع والعداء على مايدعونه من الاستئنان بسنن الدين والدنيا ، وإذا فضل عليهم الهمج من هذا الوجه فمن باب التقريع والتوبيخ لا من قبيل التفضيل المطلق لحالة هؤلاء على حالة أولئك . »

وتمضى الخرافة لتحكى لنا أن آلهة أخرى من آلهة الشر واسمها « شهرة » كانت مهمتها إذاعة العيوب والأوزار أرادت أن تستعين « بفتنة » لتسهل عليها مهمتها بما تنشره من شقاق وخصام ، فحاولت أن تخصص لفتنة مأوى معينا لتجدها وقت الحاجة إليها . وكان هذا المأوى هو « الخان »

ويقول الأب نقولا « إن هذا المثل (يعنى الخرافة) لم يوفق فيه لافونتين إلى حكمة بليغة ، وإجادة فى المقدمات والنتيجة ، وما ذلك إلا لأنه إنسان فلابد له من عثرة ، وقد قيل لكل جـــواد كبوة ، ولكل صارم نبوة ، ولكل عالم هفـوة . »

ونحن لم نذكر هذه التعليقات لبيان إحاطة الاب نقولا بالتاريخ والميثولوجية

فحسب ، بل نذكرها لنؤكد أنه فى ترجمته لخرافات لافونتين لم يكن مفتونا بها دون تبصر ، بل كان ينتقد ما يراه غير صحيح .

ومن النماذج التى عرضناها من ترجمة الأب نقـولا لخرافات لافونتين تتكشف لنا ـ علاوة على ماذكرناه ـ ظواهر تكاد تكون عامة فى كل ما ترجمه من تلك الخرافات .

أولا: أنه كان يستخدم الغريب من الألفاظ مما يضطره إلى شرحها فى هامش الصفحات . وهذا ما أخذ على كثير من مترجمى الروائع الأدبية ، نذكر منهم خليل مطران فى ترجمته لبعض مسرحيات شكسبير وحافظ إبراهيم فى ترجمته لقصة البؤساء لفيكتور هيجو.

وقد أعتبر بعض النقاد هذا المسلك نوعا من الحذلقة ، أو نوعا من المباهاة بطول الباع فى اللغة العربية . والواقع إن الغريب كان له أنصاره من الكتاب والشعراء والمترجمين فى أوائل القرن العشرين ، وقد دافع أحـدهم وهو عادل زعيتر عن استخدامه الغريب فى ترجماته ، فقال فى مقدمة ترجمته لكتاب النيـل لاميل لودفيج « ولابد لذلك من تطعيم لغتنا الراهنة مقدارا فمقدارا بما تحتوية معاجمنا من كلمات غير نابيه ، فعلها تصير مألوفة ، وهذا ماسرت عليه بعض السير فى كثير من الاسفار التى ترجمتها ، ولكن مع تفسير هذه الكلمات فى هامش الصفحات تسهيلا للمطالعة . »

ولعل الأب نقولا كان من أصحاب هذا الرأى ، فتعمد استخدام الغريب ليتعلم النشىء مفردات لغوية جديدة أسماعهم واستعمالاتهم ، فتزداد بذلك حصيلتهم اللغوية ، وكانت هذه الغاية التعليمية ظاهرة ملموسة فى بعض آثارنا الأدبيـة القديمة مثل مقامات الحريرى بصفة خاصة .

بالشعر بخاصة (١) وهذه الصعوبه اعترف بها النقاد منذ أمد بعيد ، فقد اعترف بها الجاحظ منذ القرن الثانى الهجرى فى كتابة « الحيوان » ، وذلك لأن لكل لغة أوزانا لها ايقاعتها المتباينة ولها موسيقاها الخاصة ، التى تنبع من كيانها وتحكى مزاج أهلها وثقافتها ، ويوجد أيضا موسيقى لغوية لكل شاعر ، ولكل موقف يواجهه هذا الشاعر ، وادراك هذه الفوارق بين موسيقى اللغتين المنقول منها والمنقول إليها ليس بالأمر اليسير ، كما أن هناك مسائل فنيه دقيقه فى الشعر غير موسيقاه . ظلال المعانى يتعذر نقلها أحيانا ، دلالات لصوره قد يحتاج الأمر فى نقلها إلى تفسير وتعليق ، طبيعة الشاعر وأحاسيسه والظروف التى عاشها والمواقف التى كان فيها وقت كتابة النص الشعرى . والمترجم مها تقمص شخصية الشاعر الذى يترجم شعره ، فمن العسير أن يعطى صورة دقيقة له بكل ملامحها وخصائصها .

ولهذه الاعتبارات الفنية آثر بعض المترجمين - ومنهم الشعراء - ترجمة الشعر الأجنبي بالنثر . نذكر منهم الشاعر خليل مطران الذى ترجم بعض مسرحيات شكسبير إلى العربية نثرا ، ولم يكن ذلك عن عجز مطران عن الترجمة الشعرية لها - وهو الشاعر الموهوب صاحب المكانه المرموقة فى النهضة الشعرية الحديثة - وإنما خشية ألا تؤدى الترجمة الشعرية ما فى مسرحيات شكسبير من روعة وجلال ، ومع ذلك لم تسلم ترجمته النثرية من النقد .

---

(١) أنظر محمد عبد الغنى حسن فى كتاب « الترجمة فى الأدب العربى » طبع القاهرة سنة ١٩٦٦ م باب « ترجمة الشعر » ص ٩٧ - ١٣١

وبالإضافة إلى تلك الصعوبات ، صعوبة ترجمة خرافات لافونتين التى أعيت ترجمتها فى الصورة المشكلة لروعتها وبلاغتها وخصائصها الفنية فحول الشعراء الغربيين ، وآداب لغتهم مقارنة أو مشكلة أحيانا الأدب الفرنسى ؛ ولذلك أطلقوا على لافونتين بعد نشره لخرافاته لقب (imimitalle) ومعناه الذى لا يجارى .

خاتمـــة

مـــوازنه عامـــة

وفى ختام البحث وبعد أن بينـا موقف أدباء العربية من خرافات لافونتين الذى يتمثل فى طرق ثلاثة :

(١) النقـل بالتصرف (٢) الاقتبـاس (٣) الترجمة

يجدر بنـــا أن نتساءل أى الطرق السابقة أصلح لافادة الناشئة العرب خاصة والقراء العرب بصفة عامة .

ان الاجابة عن هذا السؤال تقتضى منـــا الموازنة بين خرافات للافونتين تداولها الأدباء العرب الذين تناولهم هذا البحث كل بطريقته الخاصة : إما بالنقل بتصرف ، أو بالاقتباس ، أو بالترجمـة . وقد سبق لنـا أن حللنا طريقة كل أديب منهم عند دراسة عمله ، ولكن لعل فى الموازنة بين مختلف الطرق ما يلقى ضوء أكثر وضوحا على طبيعة كل طريقة وقيمتها .

فلو تناولنا مثلا خرافة لافونتين المسماه « سائق العربة الموحلة » التى نقلهـا محمد عثمان جلال بتصرف ، وترجمها الأب نقولا ترجمة تكاد تكون حرفيـة ، فسيتضح لنـا الفرق بين طريقتى النقل بتصرف والترجمة ، ومدى ملاءمة أى منهما للناشئة العرب والقراء العرب بعامة .

يقـــول لافونتين :

Le chartier embourbé

Le phaéton d'une voiture à foin
Vit son char embourbé. Le pauvre homme était loin
De tout humain secours : c'était à la campagne,
près d'un certain canton de la Basse - Bretagne,
Appelé Quimper - Corentin
On sait assez que le Destin
Adresse la les gens quand il veut qu'on enrage
Dieu nous preserve du voyage !
Pour venir au chartier embourbe dans ces lieux,
Le voila qui déteste et jure de son mieux,
Pestant, en sa fureur extrème
Tantôt contre les trous, puis contre ses chevaux,
Contre son char, contre lui - même
Il inv que à la fin le dieu dont les travaux
son si célébres dans la monde :
« Hercul-, lui dit - il, aide - moi; si ton dos
Aporté la machine ronde
Ton bras peut me tirer d'ici. »
Sa pr ère étant fâite, il entend dans la nue
Une voix qui lui parle ainsi :
« Hercule veut qu'on se remue,
Puis il aide les gens. Regarde d'où provient
L'achoppement qui te retient;
Ote d'autour de chaque roue
Ce malheureux mortier, cette maudite boue

Qui jusqu'à l'essieu les enduit,
Prends ton pic et me romps ce caillou qui te nuit;
Comble - moi cette ornière, As - tu fait ? - Oui dit l'homme.
— Or bien je vas t'aider, dit la voix; prends ton fouet.
— Je l'ai - pris Qu est ceci ? mon char marche à souhait :
Hercule en soit loué ! » Lors la voix : « Tu vois comme
les chevaux aisément se sont tirés de là.

Aide - toi, le ciel t'aidera. »

يترجم الأب نقولا هذه الخرافة فيقول :

« الحوذى الوحـــل »

أمير جرارة للشحن قد وحلـ ت به دواليبها إذ كان فى سفر
وكان ذا الرجل المسكين مبتعدا فى الخطب عن كل إنجاد من البشر
حذاء قطر دعى « كبركراتن» من سفلى «بريطان» فى قفر هناك عرى
إلى هناك القضاء الشأم يرسل من يريد تهييج سخط فيه مختبر
يارب صنا من الأسفار وانر ما فى ذلك الوحل الحوذى من عبر
ها إنه يكثر الايمان من غضب ويقذف اللعن فرط السخط كالشرر
طورا على حفر منهـــا بلعنة طورا على الخيل إذ كانت فلم تسر
حينا على آلة جرارة وحلت حينا على نفسه من قلة النظر
ثم استغاث إلاها أصبحت مثلا أفعاله ملء سمع الارض والبصر
«هرقل» غوثا فإن صح الذى نقلوا من أن ظهرك قل الارض فى عصر

La Fontaine : Edition annotée par L. Clément Fable XVIII (1) Livre VI page 204

فإن باعك حبى فهو مقتدر ... على الأشالى إذن من هذه الحفر

وإذ أتم الدعا أصغى بجاربه ... صوت من السحب ناداه على الأثر

«هرقل» يبغى حراك الخلق فى عمل ... حتى يعاونهم فى الضيق والعسر

فابحث إذا أين داعى ما عثرت به ... حتى رمالك بهذا الهم والخطر

اكشف عن العجل الطين اللعين أجل ... لا تبق للوحل من أثر ولا نذر

فذاك غامرها حتى محاورها ... فاعمل ! خذ المقطع الكسار للحجر

واردم غوائر أتلام العجال به ... واسحق حصاة هنا تبلوك بالضرر

فهل فعلت ؟ نعم ما قد فعلت . إذن ... إنى معينك ، هز السوط وابتدر

هززته ! ما أرى ؟ رباه واعجبا ! ... ها إن جرارتى تجرى بلا حذر

ليمدحن هرقل دائما . وإذا ... بذلك الصوت يدعو نائل الوطر

عيناك أبصرتا كيف الخيول نجت ... بالرفق فى عمل من ورطة نكر

كن عون نفسك فى هذى الحياة تجد ... عون السما أبدا يأتيك بالظفر (١)

وينقل هذه الخرافة بتصرف محمد عثمان جلال فيقول :

« العربجى الموحلة عربته »

حكاية عن رجل ذى عربة ... ما نال قط من زمان أربه

حملها المسكين بالشعير ... وسار يسعى جانب الغدير

وكانت الأرض بطين لوثت ... وبالمحاريث العظام حرثت

والعجلات انغرست فى الطين ... ولم ير السواق من معين

وضل رأيه عن الصواب ... وذاق قطعة من العذاب

(١) أمثال لافونتين للأب نقولا ، الكتاب السادس ص ٦٥ — ٧٠

فصاح بالأرض ويأسا سخطا — وما درى قال صوابا أم خطا
بل لعن الدنيا ونفسه شتم — وقد أباح غيظه وما كظم
وقال بعد يا الهى انى — أدعوك بالألطاف أن تدركنى
ناداه من جو الفلا منادى — يدعوه للسعى والاجتهاد
وقال إن تبغ النجاة فاستمع — فالعون دون الكد منك يمتنع
ذا مانع فانظر إلى أصالته — ثم ابذل المجهود فى ازالته
والعجلات نص عنها الوحلا — وعن ظهور الخيل حف الرحلا
فإن فعلت ما ذكرت تطلع — دون اجتهاد فالدعا لاينفع
وبعد هذا اجتهد السواق — من بعد قيد جاءه انطلاق
وسار بالخيل معا والعربة — ونال من هذا الدعاء أربه
قال له الهاتف بعد ما نجا — اسمع حديثا نافعا لمن رجا
اجهد ولازم طرق الفلاح — تفوز بالنصر والنجاح
والسعى خذه فى الديار مطعمك — ياعبد إن تسع أنا أسعى معك(١)

وبمقارنه النصين العربيين بالنص الفرنسى نجد أن الأب نقولا قد ذكر فى ترجمته - مراعاة للدقة والأمانة فى الترجمة - أسماء الآلهة فى الميثولوجية اليونانية التى وردت فى خرافة لافونتين ، والتى تزخر بها خرافاته الأخرى ، وهذا شيء طبيعى بالنسبة للافونتين الذى تتضمن ثقافته زادا هائلا من الأدب الكلاسيكى اليونانى والرومانى ، مثله فى ذلك مثل الأدباء الاتباعيين من معاصريه ، كما أن الميثولوجية اليونانية ليست بعيدة عن الناشئة فى فرنسا ، لأنها جزء من دراستهم للادب الكلاسيكى ، وليست كذلك بالنسبة للناشئة العرب ، ولهذا فهم بعيدون

---

(١) العيون اليواقظ : ص ١٠٨ - ١٠٩

كل البعد عما ورد فى تلك الميثولوجية من أسماء الآلهة والأبطال ممن لا يمتون إلى ثقافتهم بصلة ما . وقد أحس المترجم نفسه نفورا من تلك الأسماء فحاول تلافى ذكرها فى بداية الخرافات ، ثم لم يجد بدا من ذلك فى خلال السياق ثم فى تعليقاته عليها فوضع فى بداية الخرافة كلمة « أمير » مكان كلمة فايتون « Phaeton » (ابن الشمس فى الميثولوجية) فقال : « أمير جرارة للشحن قد وحلت » ، وقال فى الهامش مبررا استبداله كلمة أمير بكلمة فايتون : « واستخدمنا لفظة أمير عوض لفظة فايتون تفاديا من نقل هذا الاسم بلفظه لغموض المراد منه فى استهلاك المثل . »

وذكر الأب نقولا أيضا أسماء الأماكن الفرنسية التى وردت فى خرافة لافونتين ، وإذا كان لهذه الأسماء مغزى معين بالنسبة للقارىء الفرنسى ، حين يقرأ اسم كمبر كرنتن (quimner Coremtin)وهو المكان الذى أنغرست عنده العربة فى الوحل ، والذى كان فى عهد لافونتين - كما يقول الأب نقولا فى الهامش - من أسوأ البلاد طرقا فلمز به ، ومثل هذه اللمزة لا تخفى على مواطنيه ، ولكنها ليست كذلك بالنسبة للقراء العرب بعامة ، إذ لا يثير هذا الاسم عندهم أى مغزى معين .

واستخدم الأب نقولا أسلوبا يتضح فيه التعسف وروح النظم لمحاولة مطابقة النص الفرنسى ، مما جعل ترجمته العربية صعبة على الناشئة شكلا وموضوعا .

فإذا انتقلنا إلى الخرافة نفسها عند محمد عثمان جلال نجده قد نقلها إلى جو عربى ، فاستبعد أسماء الآلهة فى الميثولوجية اليونانية واستبعد أسماء الأماكن الفرنسية وما يحيط بها من ملابسات ، وتحرر من أسر النقل المباشر فصاغها بلغة عربية ميسرة ، متتبعا جميع تفاصيلها ، حتى أوصلنا إلى الحكمة المستفادة منها .

« ياعبد إن تسمع أنا أسمى معك » وهى مأخوذة من المثل الشعبى الدارج « اسمع ياعبد وأنا اسمى معاك » ، وقد أشـــرب محمد عثمان جلال هذا المثل روحا عربيـــة .

من هذه المقارنه يتضح لنـا أن الترجمة الحرفيـة الدقيقة لخرافات لافونتين لاتلائم دائما الذوق العربى لامن ناحية سلاسة أسلوبها ولامن ناحيـة ما يتضمنه النص الفرنسى من إشارات وأسماء ، وأن النقـل بتصرف يتيح لصاحبه القرب من الذوق العربى ، وبالتـالى التأثير فى النـاشئة من العرب بخاصه والقـــراء العرب بعامة .

ننتقل بعد ذلك إلى المقارنه بين النقـل بتصرف ـ الذى رجحت كفته على الترجمة كما اتضح لنا من المقارنة السابقة ـ وبين الاقتباس .

لقد سبق أن تكلمنـا عن خرافة إبراهيم العرب المسماه « الحارث وزجته والجحش » التى اقتبس فكرتها من خرافة لافونتين المسماة « الطحان وابنه والحمار » وانتقدنا بعدها عن خرافة لافونتين فى معالجة الفكرة وصياغتها وخلوها من روح السخرية والفكاهة . فإذا رأينا ما فعله محمد عثمان جلال عندما نقلها بتصرف إلى العربية لاتضح لنـا الفرق بين الطريقتين .

ويقول محمد عثمان جلال :

« الطحـان وأبنـــه والحـمار »

قرأت بعض ما رأيت فى القصص ... حين انتهزت جملة من الفرص

وعاينت بين السطور عيـــنى ... حـكاية تكتب باللجين

حـكاية عن رجل طحـان ... مع ابنـــه فى غابر الزمان

وذلك الطحان كان شيخا — أما ابنه كان صغيرا شامخا

وقد ذهبا يوما لبيع الجحش — وحكما عليه ألا يمشى

وربطاه يا أخى بالأربعة — وهو بلا مرشحة ولابرذعة

وحملاه فى الخلا بعود — مرتبطا من موضع القيود

يا ليتما رأيتـه لتصفه — معلقا بينهما كالنجفه

أول من رآه فى الخلا ضحك — وقال ذا أمر على مشتبك

لاشك أن الشيخ هذا أحمر — من الحمار وبجهل أكثر

فسمع الطحان قول الرجل — ووضع الحمار بعد الحمل

وفك منه بعد ذا القوائما — فجاء من بعد اضطجاع قائما

وركب ابنه على قفاه — والشيخ من وراء مشى قفاه

فقال شيخ مر بالغلام — هذا عمى فى العين أم تعامى

تركب أنت فوق ظهر الجحش — وذلك الشيخ المسن يمشى

انزل ومكنه من الركوب — فالناس بالمقام والترتيب

فنزل الغلام والشيخ ركب — ليتقى لائمه ويجتنب

وبعد ذا مرت ثلاث نسوه — قلن علام ذا الشقا والقسوة

ياكبدى هل الغلام يمشى — والثور هذا فوق ظهر الجحش

قال لها الشيخ وأى ثور — يعيش فى الدنيا لمثل عمرى

ولم تزل بينهم المكالمه — وقاربت تقضى إلى إلى المشاتمة

فأردف ابنه وراء ظهره — والجحش دام آخذا فى سيره

حتى أتت أمامهم جماعه — قد اشتروا من سوقهم بضاعه

ونظروا الاثنين راكبين — والجحش يشكو لغراب البين

فأمسكوا الشيخ وعنفوه — ومن كلام النقص شنفوه

فنزلا وأطلقا الحمـــارا هما ورا وهو أمام سارا

ومر شخص بعد ذا يقول هل صح مثل ذاك يا جهول

تمشى ورا الجحش على الأقدام ولم تسل عن حالة الغـلام

قال له الشيخ أخيرا مالك خيبت فى نصيحتى آمالك

والله لو تفعل مهما تفعل تعقل فى فعلك أو لا تعقل

ولو طلعت أو نزلت يوما ولو صددت أو وصلت قوما

ولو تنام أو تقوم ساعة وحـدك أو من جملة الجماعه

لما سلمت من مـلام لائم فاصغ لما أقول وارحم ترحم [١]

هذه الخرافة كما نرى أقوى صلة بخرافة لافونتين من خرافة إبراهيم العرب على الرغم من الجو العربى الخالص الذى نقلت إليه ، ذلك لأن محمد عثمان جلال قد حافظ على جميع تفاصيل الخرافة ، وذكر أوصاف أبطالها ، وسجل جميع المواقف التى تعرضوا لها بأسلوب فكه ساخر كما فعل لافونتين ، وهذا الأسلوب لم يتكلفه محمد عثمان جلال ، وإنما نبع من طبيعته ، فبـدت الخرافة وكأنها من تأليفـه .

ولكن هذه المقارنه لايجب أن تؤدى بنا إلى الحكم القاطع بأن النقل بتصرف هو الأجود دائما بالنسبة الاقتباس أو المحاكاة ، وذلك لأننا عرضنا من قبل خرافة لشوقى اقتبسها من لافونتين « الديك والثعلب » وأجاد فيها إجادة تامه

---

(١) العيون اليواقظ . ص ١٢٨ — ١٢٩

لنجاحه فى استغلال فكرة الخرافة عند لافونتين ، والتصرف فى توجيهها ، وإخراجها فى جو عربى اسلامى .

وهذا يؤكد لنا أن كل اتجاه من الاتجاهين ـ النقل بتصرف والاقتباس ـ يمكن أن يكون وسيلة ناجحة للاستفادة من خرافات لافونتين فى تربية الناشئة من العرب ، لو أحسن الأديب صوغ فكرته ، وأضفى عليها الروح العربية الاسلامية ، وكتبها بالاسلوب الميسر الجميل .

مراجع البحث

١ ـ آداب العرب لابراهيم العرب . . . طبع مصر ١٩١١ م

٢ ـ الأدب الفرنسي في عصره الذهبي لحسيب الحلوى طبع حلب ١٩٥٢ م

٣ ـ الأدب المقارن لمحمد غنيمى هلال الطبعة الثالثة طبع مصر ١٩٥٣ م

٤ ـ الأدب الحديث في نجد لمحمد سعد بن حسين طبع مصر ١٩٧١ م

٥ ـ الأمثال في النثر العربي القديم لعبد المجيد عابدين طبع مصر ١٩٥٦ م

٦ ـ أمثال لافونتين للأب نقولا أبو هنا المخلصي طبع لبنان ١٩٣٤ م

٧ ـ تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية
لجمال الدين الشيال طبع مصر ١٩٥٠ م

٨ ـ تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد على
لجمال الدين الشيال طبع مصر ١٩٥١ م

٩ ـ تلخيص الابريز إلى تلخيص باريس لرفاعه رافع الطهطاوى طبع مصر ١٩٠٥ م

١٠ ـ تطريب العندليب لجبران النحاس . . طبع مصر ١٩٤٠ م

١١ ـ تيارات أدبية بين الشرق والغرب لابراهيم سلامة طبع مصر ١٩٥١ م

١٢ ـ الحيوان للجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) الطبعة الثانية طبع مصر ١٩٦٥ م

١٣ ـ الخطط التوفيقية لعلى مبارك . . . طبع مصر ١٨٨٨ م

١٤ ـ ديوان الإمام أحمد بن مشرف . مطابع العروبة . الدوحة . قطر

١٥ ـ ديوان الحطيئه تحقيق نعمان أمين طه .

١٦ — ديوان اسماعيل صبرى . . . . طبع مصر ١٩٣٨ م

١٧ — ديوان « الشوقيات » لأحمد شوقى جـ ٤ طبعة ثانية . طبع مصر ١٩٥١ م

١٨ — الشوقيات المجهولة لمحمد صبرى طبع مصر ١٩٦١ - ١٩٦٢ م

١٩ — عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى (عبد الرحمن) طبع ١٩٠٤ م

٢٠ — العقد الفريد لابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد) طبع مصر ١٩٥٢ م

٢١ — العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ لمحمد عثمان جلال . الطبعة الأولى . طبع مصر ١٣١٣ هـ .

٢٢ — فن الترجمة فى الأدب العربى لمحمد عبد الغنى حسن طبع مصر ١٩٦٦ م

٢٣ — الفرست لابن النديم . طبع بيروت

٢٤ - فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى طبع القاهرة ١٩٧٠ م

٢٥ — قصص الحيوان فى الأدب العربى لعبد الرزاق حميده طبع مصر ١٩٥١ م

٢٦ — كليلة ودمنه لابن المقفع . تحقيق محمد حسن نائل المرصفى . الطبعة الخامسه . طبع مصر ١٩١٢ م

٢٧ — مجمع الامثال للميدانى (أبو الفضل أحمد) طبع مصر ١٣١٠ هـ

٢٨ — من اصطلاحات الادب الغربى لناصر الحانى طبع مصر ١٩٥٩ م

الدوريات

٢٩ — مجلة المجلة

٣٠ — مجلة الهلال

المراجع الأجنبية .

٣١ — Earl; Cromer : Moderm egypt London 1908.

٣٢ — La Fontaine. Fables, Edition annotée pr L. Clémant. paris 1936.

٣٣ — Larousse du 20e. Tome 3 Paris 1930.

٣٤ — Taine. La Fontaine et ses Fables. Paris 1947.

موضوعات البحث

تصويب الخطأ

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
٤	٩	الاسم آثرناه	الاسم الذى آثرناه
٥	٣	كتاب العنبى	كتاب العتبى
٦	١٢	ارادتنا	ارادتنا
٨	١٦	فلأطلبن ولأقتلنها	فلأطلبن الحية ولأقتلنها
٩	٩	وإنى لقيت	وإنى لألقى
١٠	١٣	ويرجع تاريخا	ويرجع تاريخها
١٥	٥	دليله	كليله
١٥	٩	حسين واعظ كاشى	حسين واعظ كاشفى
١٧	٧	مستلهما فى قصص كليله ودمنه	مستلهما فى ذلك قصص ...
١٩	٧	فى بذل ماله	فى بذل مال
٢١	٢	مغرور	مضرور
٢٢	١٠	أقبل أبى أمامه	أقبل أبا أمامه
٢٣	١١	أوى	أذى
٢٣	١٦	لم يكن للأدب منه دوله	لم يكن للأدب فيه دولة
٣٠	١٣	واستحدث وسائل	واستحدثت وسائل
٣١	٥	ساعدت الخريجين من مدارسها	ساعدت الخريجين فى مدارسها

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
٣٥	٤	تخرج منها	تخرج فيها
٤٢	٨	فى عهد من حكامها	فى عهد سبعة من حكامها
٤٢	١١	تخرج من مدرسة الألسن	تخرج فى مدرسة الألسن
٤٦	٢	الأزهار الأدبى	الازدهار الأدبى
٤٦	٧	زخرفت من كلامه بكلامى	زخرفت من كلامه كلامى
٤٧	٥	مسرحة المخدمين	مسرحية المخدمين
٥٠	٦	حكاية الحليان	حكاية الحكيمان
٥٢	١٩	lop	loup
٥٣	٦	écolle	écolier
٥٣	١٥	médeine	médecine
٥٣	٢٥	marouelade	marmelade
٥٤	٨	واستنشق الطب	واستنشق الطيب
٥٧	١٦	Calends	Calendes
٦٠	١٢	farm	faim
٦١	١٦	وبمقارنة النصين	وبمقارنة النصين
٦٢	٨	ويعترفون	ويعترفوا
٦٢	الهامش	ضمير	حصير
٦٢	الهامش	بعلق	بعلق

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
٦٤	٢٣	accourut	accourût
٦٥	٨	Sauait	Sauait
٦٦	١٠	الست دى اللى بتاكل	الست اللى بتاكل
٦٧	١٨	«اللى فهشى مايخلهشى»	لأن « اللى فهشى مايخلهش »
٦٩	٣	اهسا	اهتيا
٦٩	٤	بهزمنا	بعد منا
٦٩	٥	بوسمنا	يوسمنا
٦٩	٩	يخضهسا	ينحضنها
٦٩	١١	فاغرموا بل غنموه	ماغرموا بل غنموا
٦٩	١٨	بجفساه	حفساه
٧٠	١	بخفيره	بحيوره
٧١	١٢	فرشت شويتق	فرست شويتق
٧٢	١١	طعم الهدى	طعم الهوى
٧٢	١٩	حصنسا	مسنا
٧٤	٣	العمل الأعلى	العمل الأدنى
٧٤	٩	من بعثه فى فرنسا	من بعثه
٧٦	٨	يتفهموله	فيفهموله
٨٠	١٩	الرعية فى الاصلاح	الرغبة فى الإصلاح
٨٠	الهامش	الشوقيات جـ ٤ ص ١٦٨	الشوقيات جـ ٤ ص ١٧٣

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨١	٢	ـريقه	طريقه
٨١	١٦	ويستتر شرق	ويستتر شوق
٨٢	٤	التهويت بالوطن	ابتهويت بالوطن
٨٨	٣	وتعاطف	وتعاطفت
٨٩	٧	وصفها في أوزان	وضعها في أوزان
٩٢	١٢	الرحلة المتوسطة	للرحلة المتوسطة
٩٤	١٣	وكل من حاملها	وكل من حاملهما
٩٥	١١	يحتج بلوحته	يحتج بلهجته
٩٦	١٧	أثر الكلمة في نجاة صاحبها	أثر الكلمة الطيبة في نجاة صاحبها
٩٦	١٨	الفتاة والنملة	الفتاة والنحلة
٩٧	١٩	قام له لكلب	قام له الكلب
٩٩	٣	وأن الحب يورث بالنسب	وأن المجد يورث بالنسب
٩٩	١٣	ويعتق الغني عبد الرق	ويعتق القوى عبد الرق
١٠١	٦	وأخذ نفسه في صياغه خرافاته	أخذ نفسه بالجد الشديد في صياغة خرافاته
١٠٢	٢	الآب نقولا	الأب نقولا
١٠٣	٩	وكاتت	وكاتب
١٠٥	١٤	eks champs	des Champs
١٠٥	١٥	Yaçon	façon

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
١٠٦	١	honnêta	honnête
١٠٦	٤	eu	en
١٠٦	١٣	l'est	c'est
١٠٦	١٤	mos	nous
١٠٦	١٩	doue	donc
١٠٧	٣	لحم فرسى	لحم فرّى
١٠٧	٥	طفسه	طنفسه
١٠٧	١٧	مكاروك	مكارمك
١٠٨	١	تميسه	نبيسه
١٠٩	٦	se ait - ce	était - ce
١٠٩	١٥	ملدمته	خدمته
١١٣	١٩	جديدة أسماءهم	جديدة على أسماءهم
١١٤	٣	يكتنفيه	يكتنفه
١١٥	١٧	تقسى	تفدى
١١٦	٣	إيقاعتها	إيقاعاتها
١١٦	٤	ثقافتها	ثقافتهم
١١٦	الهامش	كتاب الترجمة في الأدب العربي	كتابه فن الترجمة في الأدب العربي ،
١١٧	٣	مشكله	مشاكلة
١١٧	٤	inimitalle	inimitable

صوابه	الخطأ	السطر	الصفحة
النقل بتصرف	النقل بالتصرف	٣	١١٨
لص	لص	٧	١٢٢
خف الرحلا	حف الرحلا	٧	١٢٢
وبالنجاح	والنجاح	١٢	١٢٢
مغزى	الغزى	١٠	١٢٣
يقرأ هلا اسم	يقرأ اسم	١١	١٢٣
quimper Corentin	quimner Coremtin	١١	١٢٣
الحارث وزوجته	الحارث وزجته	١١	١٢٤
اقتبس فكرتها	اقتبس فكريها	١٢	١٢٤
فإذا أخذنا هذه الخرافة نفسها ورأينا مافعله محمد عثمان	فإذا رأينا مافعله محمد عثمان	١٤	١٢٤
قد ذهبا	وقد ذهبا	٢	١٢٥
بالنسبة للاقتباس	بالنسبة الاقتباس	١٦	١٢٦
طبع مصر ١٩٧٣	طبع مصر ١٩٥٣	٣	١٢٩
طبع مصر ١٩٥٨		١٥	١٢٩

المراجع الأجنبية .

٣١ — Earl; Cromer : Moderm egypt London 1908.

٣٢ — La Fontaine. Fables, Edition annotée pr L. Clémant. paris 1936.

٣٣ — Larousse du 20e. Tome 3 Paris 1930.

٣٤ — Taine. La Fontaine et ses Fables. Paris 1947.

موضوعات البحث

تصويب الخطأ

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
٤	٩	الاسم آثرناه	الاسم الذى آثرناه
٥	٣	كتاب العنى	كتاب الضبى
٦	١٢	ارادتنا	ارادتنا
٨	١٦	فلأطلبن ولأقتلنها	فلأطلبن الحية ولأقتلنها
٩	٩	وإنى لقيت	وإنى لألاق
١٠	١٣	ويرجع تاريخنا	ويرجع تاريخها
١٥	٥	دليله	كليله
١٥	٩	حسين واعظ كاشى	حسين واعظ كاشفى
١٧	٧	مستلها فى قصص كليله ودمنه	مستلها فى ذلك قصص ...
١٩	٧	فى بذل ماله	فى بذل مال
٢١	٢	مغرور	مضرور
٢٢	١٠	أقبل أبى أمامه	أقبل أبا أمامه
٢٣	١١	أوى	أذى
٢٣	١٦	لم يكن للأدب منه دوله	لم يكن الأدب فيه دولة
٣٠	١٣	واستحدث وسائل	واستحدثت وسائل
٣١	٥	ساعدت الخريجين من مدارسها	ساعدت الخريجين فى مدارسها

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
٣٥	٤	تخرج منها	تخرج فيها
٤٢	٨	فى عهد من حكامها	فى عهد سبعة من حكامها
٤٢	١١	تخرج من مدرسة الألسن	تخرج فى مدرسة الألسن
٤٦	٢٠	الأزهار الأدبى	الازدهار الأدبى
٤٦	٧	زخرفت من كلامه بكلامى	زخرفت من كلامه كلامى
٤٧	٥	مسرحة المخدمين	مسرحية المخدمين
٥٠	٦	حكاية الحليان	حكاية الحكيمان
٥٢	١٩	lop	loup
٥٣	٦	écolle	écolier
٥٣	١٥	médeine	médecine
٥٣	٢٥	maronelade	marmelade
٥٤	٨	واستنشق الطب	واستنشق الطيب
٥٧	١٦	Calends	Calendes
٦٠	١٢	farm	faim
٦١	١٦	وبمقارنة النصين	وبمقارنة النصين
٦٢	٨	ويعترفون	ويعترفوا
٦٢	الهامش	ضمسير	حسير
٦٢	الهامش	بحلق	بحلق

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
٦٤	٢٣	accourut	accourût
٦٥	٨	Sauait	Sauait
٦٦	١٠	الست دى اللى بتاكل	الست اللى بتاكل
٦٧	١٨	«اللى فهشى مايخلهوش»	لأن « اللى فهشى مايخلهش »
٦٩	٣	اهما	اهتما
٦٩	٤	بعزمنا	بعد منا
٦٩	٥	يوسعنا	يوسعنا
٦٩	٩	بخضها	ينحضها
٦٩	١١	فاغرموا بل غنموه	ماغرموا بل غنموا
٦٩	١٨	بجفاه	حفاه
٧٠	١	بخيره	بحيره
٧١	١٢	فرشت شويتق	فرست شويتق
٧٢	١١	طعم الهدى	طعم الهوى
٧٢	١٩	حسنا	مسنا
٧٤	٣	العمل الأعلى	العمل الأدنى
٧٤	٩	من بشه فى فرنسا	من بعثه
٧٦	٨	يتفهموله	فيفهموله
٨٠	١٩	الرعية فى الاصلاح	الرغبة فى الإصلاح
٨٠	الهامش	الشوقيات جـ ٤ ص ١٦٨	الشوقيات جـ ٤ ص ١٧٣

صوابه	الخطأ	السطر	الصفحة
ظريف	شريف	٢	٨١
ويستمر شوق	ويستر شوق	١٦	٨١
ابتهجت بالوطن	التهجت بالوطن	٤	٨٢
وتعاطفت	وتعاطف	٢	٨٨
وضعها في أوزان	وصفها في أوزان	٧	٨٩
للرحلة المتوسطة	الرحلة المتوسطة	١٢	٩٢
وكل من حامليها	وكل من حامليا	١٣	٩٤
يحتج بلهجته	يحتج بلحجته	١١	٩٥
أثر الكلمة الطيبة في نجاة صاحبها	أثر الكلمة في نجاة صاحبها	١٧	٩٦
الفتاة والنحلة	الفتاة والنملة	١٨	٩٦
قام له الكلب	قام له الكلب	١٩	٩٧
وأن المجد يورث بالنسب	وأن الحب يورث بالنسب	٣	٩٩
ويعتق القوى عبد الرق	ويعتق الغنى عبد الرق	١٣	٩٩
أخذ نفسه بالجد الشديد في صياغة خرافاته	وأخذ نفسه في صياغه خرفاته	٦	١٠١
الأب نقولا	الأب نقولا	٢	١٠٢
وكاتب	وكانت	٩	١٠٣
des Champs	oks champs	١٤	١٠٥
façon	Yaçon	١٥	١٠٥

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
١٠٦	١	honnête	honnête
١٠٦	٤	eu	en
١٠٦	١٣	l'est	c'est
١٠٦	١٤	mor	nous
١٠٦	١٩	doue	donc
١٠٧	٣	علم فرسي	علم فرنى
١٠٧	٥	طقسه	طنفسه
١٠٧	١٧	مكاروك	مكارمك
١٠٨	١	تميسه	نعيمه
١٠٩	٦	se ait - ce	était - ce
١٠٩	١٥	ملدمته	خدمته
١١٣	١٩	جديدة أسماءهم	جديدة على أسمائهم
١١٤	٣	يكنفيه	يكتبه
١١٥	١٧	نفسي	لنفسي
١١٦	٣	إيقاعتها	إيقاعاتها
١١٦	٤	ثقافتها	ثقافتهم
١١٦	الهامش	كتاب الترجمة في الأدب العربي	«كتاب في الترجمة في الأدب العربي»
١١٧	٣	مشكلة	مشاكلة
١١٧	٤	inimitalle	inimitable

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
١١٨	٣	النقل بالتصرف	النقل بتصرف
١٢٢	٧	نص	لفض
١٢٢	٧	حف الرحلا	خف الرحلا
١٢٢	١٢	والنجاح	وبالنجاح
١٢٣	١٠	الفزى	مغزى
١٢٣	١١	يقرأ اسم	يقرأ مثلا اسم
١٢٣	١١	quimuer Coremtin	quimper Corentin
١٢٤	١١	الحارث وزجته	الحارث وزوجته
١٢٤	١٢	اقتبس فكريها	اقتبس فكرتها
١٢٤	١٤	فإذا رأينا مافعله محمد عثمان	فإذا أخذنا هذه الخرافة نفسها ورأينا مافعله محمد عثمان
١٢٥	٢	وقد ذهبا	قد ذهبا
١٢٦	١٦	بالنسبة الاقتباس	بالنسبة للاقتباس
١٢٩	٣	طبع مصر ١٩٥٣	طبع مصر ١٩٧٣
١٢٩	١٥		طبع مصر ١٩٥٨